

مجموعة قصص

انتصاف ليل مدينة

سمير الفيل

رئيس مجلس الإدارة :

فاروق خورشيد

مقرر لجنة النشر:

أحمد الشيخ

الإشراف العام :

أحمد سويلم

تصميم الغلاف إهداء من :

الفنان إيهاب شاكر

الإهـــداء..

إلى روح الأسلاف فى الجنوب..
إلى جرانيت الناس الأشداء..
حيث باحت المعابد القديمة..
ببعض أسرارها

«وردة»

وردة لاتفنى خلف شعرى..
وردة كاملة وشذية..
وردة فى حديقة سوداء من عمق ليلتى

بورخيس..

الساتـــر..

كانوا قد بدأوا فى إزالة الساتر عندما عدت من المدرسة. شمروا عن سواعدهم وراحوا يطرقون كتل الأسمنت التى تعلو الطوب الأحمر. كبيرهم جلس القرفصاء أمام المنزل، وراح يرشف الشاى القاتم من كوب زجاجى رخيص. تسمرت أمام المنظر. لم أفهم السبب. رفض جدى أن يهدم هذا الساتر مرات ومرات. عندما جاءه مهندس البلدية ليخبره أن هذا الساتر يعرقل انسياب المارة على الرصيف، هز جدى كتفيه وتغضن وجهه وهو يصيح فى سخرية: ولماذا أقمتموه؟

تمالكت الحيرة المهندس ثم عثر على الإجابة أخيراً، فقذف بها لتنقذه من توتر ذهنى كان قد اعتراه: انتهت الحرب!

يومها صمم جدى على أن يظل الساتر قائما طالما هو حى يرزق. عندما وصله المظروف الأصفر بخاتمه الحكومى الأسود المستدير، أمسكه فى يده، وألقى به فى الهواء ثم قذفه من النافذة دون أن يقرأه: إنذار! قفزت درجات السلم، وعدت به إلى جدتى. فتحت المظروف وصدق حدس جدى. جاءنا صوته الذى تشرب بهدوء عميق: سأدفع الغرامة ولن أهدمه!

ماالذى حدث حتى يتذكروه بعد تلك السنوات؟

صرخة انخلع لها قلبى. انتزعتنى من أفكارى المشتتة. كانت الصرخة تنبعث من نافذة منزلنا . وجه أليف أطل، وصوت شرخه البكاء : رايح فين وسايبنا؟! قفزت الدرجات. كنت أقف أمام الباب الذى فتح على مصراعيه، وأقاربى فى وجوم. رأيتهم. النسوة يبكين ويلطمن الخدود، أما الرجال فكانت أعينهم محمرة من أثر بكاء حدث. وأمى التى ارتدت السواد عندما رأتنى اندفعت نحوى تحتضننى: جدك مات!

أنزلت حقيبتى من فوق ظهرى ووضعتها على المقعد الخشبى وحاولت أن أبدو متماسكا رغم الدموع التى انحدرت: عايز أشوفه.

شخط عمى مختار فى وجهى: أخرج بره.. انزل الشارع!

انكمشت بين فخذى أمى، تضاءلت . صحت فيهم جميعا: جدى.. عايز أكلمه!

فى تلك اللحظة كانت طرقات المعاول تتعالى.. اندفعت نحو النافذة كان الساتر قد تناثرت أشلاؤه. والرجل الذى يشرف عليهم يحتسى كوبا آخر من الشاى ويستند بظهره إلى جدار منزل عمى حسانين.

رآنى عمى أحاول أن أطل من انفراجة الباب الموارب، كان يصفعنى بكلماته، نظر إلىّ طويلا.. تبادل النظر مع أمى: عايز تشوفه.. اتفضل!

تسللت من الفتحة الضيقة، انحشر جسدى، بصعوبة دخلت، كانت الملاءة تغطى جسده، أزحت طرف الملاءة، فبان وجهه الذى أحبه، كان بشوشاً كالعادة. خيل إلى أنه نائم، يفتح عينيه عندما يشعر بى، يحدثنى بنبرات صوته الحنون: اقعد يا أسامة.. ورينى واجبك!

لكن صوت البكاء بالخارج كذب ماتخيلته، أكوام من علب الأدوية وشرائط الحبوب المسكنة تتناثر على المنضدة القريبة من سريره النحاسى، وكوب به بعض الماء: عملت أيه فى المدرسة النهاردة؟

كدت أنفذ من الانفراجة الضيقة، أحضر كتيباتى وأعود، لكن أمى أتت. جذبتنى من يدى، التصقت بها: ياالله بينا.. اللى كان بيحبك مات!

الموت.. الموت.. دائما الموت. كلمة قاسية محددة باترة كالخنجر قابلته أكثر من مرة واليوم يزور منزلنا.. فى حجرة جدى. أراه وأقابله: وجها لوجه.

عندما ذهب أبى للحرب، فرحت لأنه سيحرر لنا الأرض التى ضاعت، ويرفع العلم الذى نكس، ويعيد لنا الكرامة التى رحلت.. كانت الحرب تعنى بالنسبة لى مارشات عسكرية، أغنيات حماسية. سواتر. طلاء الزجاج بالأزرق. ووجوه مبتسمة ترفع قبضاتها بعلامة النصر. وعساكر منتصف الليل يزعقون وقت الغارات فى أى ضوء يتوهج: «طفوا النور.. طفوا النور» وخطابات لها رائحة البارود والدم. لكن أن يموت أبى. فهذا

هو الشيء الوحيد الذى لم أتصوره. ويومها يوم أن أتانا الخبر شقت أمى ثوبها، خرجت فى الطريق تعدو، تعفر شعرها بتراب الزقاق، أخرج فى أثرها، أضيع بين الأقدام، تصرخ وتصرخ حتى ينحبس صوتها وتعود بها جدتى. ترقدها فى سريرها. وتجلس الجدة على الكليم البنى الذى اشتراه أبى قبل الحرب، تحدثه: ليه يا أبو أسامة تروح ماتجيش.. ليه ؟ أحاطنى الحى بأكمله بعطف كان يشعرنى كل لحظة بمعنى الموت. ذهب أبى ولم يعد.. الموت.. الموت.. وعندما سألنى مدرس الفصل عن مهنة أبى.. نطقت كلمة واحدة. مات.

وعندما رفع زكريا ابن عمى «حسانين» تاجر المعسل يده، وأخبر المدرس أن أبى مات فى الحرب. اقترب منى المدرس وهمس فى أذنى: لقد استشهد. لا تقل مات مرة أخرى. لكننى لا أعرف ما الفرق بين الكلمتين؟! كل ما أعرفه أننى لم أعد أنتظر عودته ساعة الظهيرة. أسمع صوت المفتاح يدور فى طبلة الباب، ينفتح، افاجئه بالسؤال: جايب أيه.. عنب واللا خوخ؟! يخفى بيده الفتحات التى تشى بنوع الفاكهة، يغطى القرطاس: لو عرفت تأخذ صاغين! أخمن وأنطق: عنب! يحملنى بين يديه، يقذف جسدى فى فضاء الغرفة، أهبط بين ذراعيه، يتركنى أتحسس ذقنه النابتة كشوك ألفته وصرت أحبه: ادينى صاغ.. طيب بلاش.. كفاية جنيه! تضحك أمى. يضحك أبى.. وشمس الظهيرة تتسلل من النافذة.

المرارة التى فى نفسى والألم الذى خبرته قد هجرنى. اللحظة يجتاح الألم المنزل.. الوجوه المتجهمة، وعشرات الصدور تعلو وتهبط: وحدوه!..

أنزل الحوش الواسع. وضعوا الآن المقاعد أمام المنزل. العمال قاربوا الانتهاء من إزالة الساتر، وعرفت ساعتها أن النعش لم يكن ليخرج محمولاً فوق أكتاف الرجال إلا بعد أن يحولوا الساتر المتماسك القوى إلى كتل متناثرة من الطوب والأسمنت.

جلس عمى حسانين، بجوار زوج أختى «خالد» الذى تصادف موت

جدى أثناء اجازته السنوية من عمله بـ «السعودية». كانت سيارته تقف على الناصية اليسرى، تلمع تحت وهج الشمس. الأطفال يركبونها، يصرخ فيهم: امشوا بعيد. يا أولاد الـ .. ! يخرج علبة سجائره «الدانهل» ويقدم لفائفه المذهبة للمعزين. نزل عمى مختار وجلس بجوارهما. وجهه مصفر، الموت. الموت. فى الأفلام الأمريكية التى أراها بالتلفزيون، يموت العشرات من أفراد العصابات بمسدس البطل. ولا يشعر أهلهم بمثل هذا الحزن. لا تجلس أسر القتلى تنوح وتلطم مثلما نفعل. رأيت منذ يومين «الرجل الخارق» يحمل سيارة ويقذفها فى النهر، فيغرق الأشرار وأصفق. يميل جدى من فوق سريره نحوى: لا تصدق كل ما تراه.. لا تبتلع الخدعة! لم أفهم كلمات جدى المبتورة، فقد كان البطل يبتسم لى، والموسيقى تحوطه، وأنا أريد أن أن أصبح مثله، لى عضلات بارزة وقوى خارقة، أتنقل فى زهو بين الحدائق والفتيات والموائد!

كانت المقاعد قد غصت بالمشيعين، صوت النسوة خفت، والنوافذ مفتوحة، والمحال بالزقاق قد أغلقت أبوابها. الساتر أزيل تماماً. كوم العمال معاولهم بدأوا ينفضون الأتربة من على ملابسهم التى استحالت إلى لون الرماد. وكبيرهم نادى على عمى مختار، كلمه، فمد عمى يده فى جيب سترته وأعطاه نقوداً.

الساتر لم يعد له وجود. كنت قد كتبت عليه أيام الحرب: تحيا مصر، وبهتت الكلمة مع مرور الزمن، لكنى - وحدى - كنت أستطيع قراءة الحروف بوضوح، وأتمنى أن أعيد كتابتها مرة ثانية. لكنهم أخبروا جدى أن الحروب قد انتهت وأن الساتر الذى أقيم منذ سنوات قد صار عائقا للمارة وأفكارهم فى تنظيم الشارع.

جاءت خالتى (بهية) منفوشة الشعر، جاحظة العينين، تلوح بمنديلها الأسود، تولول فى كلمات منغمة يصبغها البكاء: ماكانش يومك يا غالى! وتذكرت أنها تبكى ابنتها التى ماتت الشهر الماضى. غبش الفجر وصياح الديكة، عندما شقت صرخات ألم سكون حذر: آه.. آه: آه..

لحظتها التصقت بأمي، همست في أذني أمينة.. أمينة تلد. وأمينة هذه ابنه خالتي بهية. رأيتها تنشر ملابسها على حبل مشدود فوق سطح منزلهم المواجه لنا، ورأيت بطنها المتكور. سألت أمي، وعرفت أن الطفل يرقد وسيخرج عندما يكبر. لم تخبرني أمي بالصرخات التي شقت الظلام والصمت. صرخات تلو صرخات، ثم صرخة واهنة ممتدة. وصوت خالتي بهية يأتي عبر النافذة: البنت راحت.. راحت. في الصباح كان جنازها، والبكاءينضح من العيون، سرت في المقدمة حتى بانت (الجبانة).. شواهد رخامية وأهلة من خشب عتيق.، زخارف، وآيات محفورة على مداخل الأضرحة، أفرع الخوص المتناثرة.. رجال كالذين رأيتهم يزيلون الساتر، شمروا عن سواعدهم ووقفوا أمام الفرجة التي كان أمامها كومة من رمال. أبعدني عمي مختار بيده: أيه اللي جابك هنا.. يالله روح..

خنقني البكاء. بيني وبين الموت رحلة انتظار وترقب وألم. وكنت أريد يا عمي أن يكون لأبي قبر، أزوره فيه، أجلس على مقربة منه، وأقرأ له الفاتحة.. أبتاع خوصاً أخضر، وباقات زهور. أضعها صباح كل عيد على قبره، كما تفعل أمي مع الموتى من أقاربها.

لكنه اختار أن يسقط بعيدا بعيدا.. وسط انفجارات الشظايا والدانات. والرمال هي كفنه. والخوذة التي كانت تعلو رأسه هي شاهده. تحسست دموعها لها ملمس صرت أعرفه. الموت.. الموت.. لا أعرف ما سيحدث. جثة جدي سترقد بالصندوق الخشبي. ويمضي الخلق من خلفه. انحنيت كالقوس، أفكر فيه: الموت. بالأمس كان جدي المريض يدير مؤشر الراديو، وكان يستمع إلى نشرة الأخبار، وأتاه صوت المذيع يعلن أنباء ضرب طائرات إسرائيل لبيروت، ومصرع عشرات الأطفال والنساء.

عندما سمع جدي النبأ ثار، سب ولعن، غطى وجهه بيديه المرتعشتين صاح بصوته الواهن: أغلق الراديو.. إنني مريض.

كان يبكي بلا دموع.. صدره يعلو ويهبط وعيناه تمسحان الفضاء

البعيد. اعتدل فى رقدته. بلع بعض المسكنات، رفعت كوب الماء ليشرب، افرغ كل الماء فى جوفه، تنهد، أجلسنى إلى جواره: مش قلت لك. الساتر لازم يفضل. الحرب ما انتهتش!

هززت راسى مستوعباً كلماته: حتى لو هدوه. أبنيه من تانى.

لم أدر لحظتها هل يحب جدى الحرب أم يكرهها مثلى. مستحيل أن يحبها وهى التى بطشت بأبى، لابد أن الأمر يحتاج إلى شرح وفهم.. وجدى صار لسانه فى حلقه لا يقدر على تحريكه. أمره الطبيب بالراحة.. عندما كانت يده المرتعشة تجوس في شعرى ويحكى لى حكاية الأسد والبقرات الثلاث. كنت ألمح خيوطاً من أسى ترتسم على وجهه الحبيب.

يطلب منى أن أتذكرها. وأحكيها مرة أخرى: صلى على النبى ياجدى.. وكمان زيد النبى صلا.. كان فيه.. الموت.. الموت.. الصراخ يعلو ويعلو. الرجال انتفضوا وتركوا المقاعد. النسوة بالنوافذ يلوحن بمناديلهن. تختلط كلماتهن الباكية بنواح البنات بالداخل، النعش أراه الآن. تحركه الأذرع ليتفادى الاصطدام «بالدرابزين».. أمام المنزل.. الصرخات تخفت. المشيعون يصطفون. الأعلام الخضراء فى المقدمة على أكتاف الرجال.. وعم (حمص) بشارته الصوفية الخضراء يقود مجموعة الرجال بطرابيشهم الحمراء. وتراتيلهم المنغمة. والساتر لم يعد له وجود.

خنقتنى أحزانى. كنت أريد أن أقبله. خفت أن يرانى أصدقائى أبكى. وكنت أريد أن أودع جدى. حشرت جسدى النحيل بين الصفوف. وفى الجنازة غلبنى البكاء، وقدمى تطأ بقايا من الساتر الذى هدموه. لم أكن موقنا: هل بمقدرتى عندما أكبر أن أقيم ساتراً جديداً؟!

الصفعـة..

الواقعة كما حدثت بحذافيرها..

لما استند بكوعه على حافة المنضدة. لم يحس بالقميص يشيط نسيجه، فيبدو جلده البنى لعيونهم البصاصة، كتب التاريخ الأفرنجى أعلى الزاوية اليسرى للسبورة السوداء، وتأكد من التاريخ العربى فى الجهة المقابلة، نظر بعينه المجهدة، بربشت فى الوهج الشحيح النافذ من سحب رمادية متثاقلة، وأيقن أن الشهر طوبة. أصطكت أسنانه، وقف يفرك يديه تلمسا للدفء، تنهد، ولما دخل آخر طالب الفصل وصفق الباب خلفه محنيا رأسه بأدب، فتح دفتره النبيتى، ىكتب بأصابع مدربة: « الحملة الفرنسية على مصر».. وبدأ يتحدث فى ثقة، على حين وقعت عينه على المقعد الخالى فى الصف الأول، خمن أنه سيحضر كالعادة متأخرا، بدأ يناقش طلابه، ويكتب النقاط الهامة على السبورة، ونقرات على الباب المغلق، أطل وجه الناظر، ألقى تحية الصباح، دخل.. «قيام.. جلوس».. وقع على دفتر التحضير، همس فى أذن المدرس.: «ابن خال مدير الإدارة.. تعيش انت!».. امتدت يده بتلقائية نحو الجيب الداخلى للسترة المعلقة على ظهر مقعده الخالى انتزع حافظة نقوده، بحرص انتزع نصف الجنيه، مده فى برود إلى يد الناظر الممدودة، ابتسم له قبل أن يغلق الباب خلفه. «أكثر الله خيرك!».. الأستاذ حسين عد بقية جنيهاته المطوية، تنهد، أخرج من جيبه منديلا ومسح الغبار، وتذكر وهو يلمع العدسات أن ميعاد كشف نظارته الجديدة فى السادسة مساء، حجز منذ يومين، دفع جنيهات عشرة، وضعت الممرضة القطرة للكشف بقاع العين، وأخبره الطبيب أن كشف العدسات بعد يومين، أحس بالبرد يسرى فى أوصاله، أشار لتغلق النافذة فى آخر الفصل، وواصل حديثه. دقات متلاحقة، دخل الفصل مندفعا: «تسمح لى بالدخول.. تأخرت قسرا!» اندفع إلى الصف الأول، فتح الحقيبة محدثا ضجة و «خرفشة».. انتزع كراسته ذات «السلوفان»

الأزرق.. والأستاذ حسين رأى مجيد الشوباشى قد جلس بدون « إحم ولا دستور» فأخذته الحمية، وصرخ فيه أن يخرج ويستأذن. والولد قام من مقعده، وقال إنه خبط على الباب وهذا يكفى. أقسم الأستاذ حسين أنه لن يقول كلمة واحدة إلا إذا خرج، ومجيد هز كتفيه، وقال لزملائه إن هذا لا يعنيه، ودس يديه فى جيب بنطلونه «الكاوبوى» وصعد البخار من أنفه، وبان حذاؤه لا معا بالرغم من أن الأرض موحولة، ونفير السيارة المبتعدة جعل الولد ينفخ صدره، ويضرب الدرج الخشبى بقبضته: «من الأفضل أن تشرح بدلا من أن تضيع وقتنا» التفت بعض الطلبة حوله يسكتونه، والأستاذ حسين ارتدى الجاكت وحبك رابطة عنقه المتسخة ونفض الطباشير الأبيض من يديه، وجلس يزفر. بعض الطلبة التفوا حول مجيد يلومونه، صرخ فيهم: «يضيع وقتكم.. الأمر لا يخصنى.. كل هذه الدروس تشرح لى.. بنقودى أتعلم!».. كانت صورة طه حسين أعلى السبورة تكاد تختفى تحت ذرات الطباشير الجيرية، راقب عبوسه خلف المنظار، وغزاه الأسى. احتقن وجهه، ولأول مرة فى حياته رغم صبره الطويل، وحكمة السنين التى عركها، وجعلته يبلور حكمته المأثورة: «ابعد عن الشر، وغنى له».. يجد نفسه وجهاً لوجه أمام هذا الشر متجسدا فى صلافة وغرور هذا اللعين، كان التاريخ يشير إلى الحادى عشر من يناير، والثامن من ربيع الآخر، وطوبة فى يومها الثانى، بلا أمطار، لكنه الصقيع، استجمع قواه ـ فى الثامنة وخمس دقائق كما أشار كل الزملاء فيما بعد ـ ولطمه على وجهه لطمة هائلة، ثم راح يقطع دفتره حتى صار مزقا صغيرة، ألقاها على بلاط حجرة الدراسة، وغادرها، بينما مجيد الشوباشى يمسح الدم السائل على فمه بظهر يده، متخاذلا كفأر.. والفصل ترن الإبرة فيه تسمع صوتها، والناظر الذى أخذ خمسين قرشا. كان لحظتها يضع بقلمه الأبنوس خطاً عرضيا تحت الأرقام ويجمع حصيلة برقية العزاء، وأدرك أن المبلغ يتعدى العشرين جنيها، وهى فرصة لا تعوض للنشر فى

الصفحة قبل الأخيرة من الأهرام، لكنه عندما علم بالصفعة، ترك كل ذلك، واندفع إلى الفصل كالمجنون!

ما حدث من الناظر كما أجمع الشهود

أزاح الطلاب من طريقة، فى اندفاعه اصطدمت ركبته بمسمار برز من أحد المقاعد فمزق بنطلونه، وخدش الجلد، أحس بالدم الساخن يسيل فلم يعبأ.. وجده فى المقعد مكوما، اسالت الصفعة دمه، هو الآخر.أخرج منديله الأبيض وأرسل ساعيه يحضر كوب ماء، بلل طرف المنديل، ومسح الدم المتخثر، ربت برفق على كتفيه، وجعله يستند على كتفه، حدث نفسه «خراب بيتك ياحسين».. أجلسه على مقعده، وصفق فأطل وجه غزته التجاعيد، أحضر كوب الشاى الساخن: «اشرب حسين مثل والدك.. لا تغضب إلا منى». وجهة المتجهم ينذر بالشر، يعرف أن أباه له نفوذ قوى، وعلاقات بأناس كبار، أساطيل سياراته تجوب المدينة والمدن المجاورة، ولازال اسمه يلطخ جدران المنازل، وحتى سور المدرسة. منذ أسبوعين لا أكثر أتى بالبلاط والأسمنت وعروق الخشب والعمال، وبنى الجامع ذى المئذنتين. وحضر حفل افتتاح مشروع الأمل لتربية البط البكينى منذ أيام مرتديا بدلته الكشمير، ممسكا بيده مسبحته الكهرمان ذات الصدف.. فكيف حدث ما حدث؟

قال له بتوتر تغلغل فى كلماته المنتقاة: «لا داع لأن تذكر ماحدث.. قل لهم بالمنزل إنك وقعت من على حصان القفز. هز الولد رأسه ومضى تشيعه نظرات وجلة. وعندما استدعى الأستاذ حسين، وبخه وأمره أن يسرع بإصلاح غلطته قبل فوات الأوان، لكنه ركب رأسه، وقال كلاماً أجوف قاله أحمد عرابى يوما لتوفيق خديوى مصر.. ورد الناظر بقوله «إن هذا عبث، وكلام كتب لا يقدم بل يؤخر، ولقد أتى بالاحتلال لبلاد الكنانة فى قديم الزمان، وسيخرب بيتك الآن..!»

فبسط حسين يديه المعروقتين إلى السماء التى كانت تمطر، وهمهم بكلام لم يتبينه الناظر!

تفصيلات صغيرة عما حدث فى بيت عائلة الشوباشى

الرجل ذو الخاتم الذهبى بفص الياقوت ركن سيارته أسفل العمارة بعتبها الرخامى وأشعل سيجاره الغليظ وضغط على الزر الكهربى، فانتقل الضوء فى الدوائر المتجاورة حتى أشار السهم إلى الدور الأرضى. فاندفع إلى المصعد حالما انفتح الباب وخرجت سيدة مسنة عرت ظهرها - بالرغم من البرد - يتبعها كلبها الصغير بشعره المنفوش، ضحك لها، فهزت رأسها مبتسمة، والمصعد أنَّ فى اندفاعه إلى الدور التاسع، كالعادة نظر فى ساعته الرقمية ذات الغلاف البلورى وإطار البلاتين، وجذب المقبض الألمونيوم وخرج، سار فى الردهة المفضية إلى شقته، ضغط على الجرس، فتحت له «أم عبده» الباب، حملت الشغالة عنه حقيبة «السمسونيت»، وانكمشت خلفه، أدركت أنه حتماً سيرغى ويزيد عندما يرى مجيدا وعلى شفتيه المتورمتين أثر الصفعة، أغلقت خلفها باب المطبخ ، وقفت وراءه تتنصت.

فى دخوله حجرة السفرة وجدها تضع يدها على ذقنها والولد مكوّم فى مقعده ونظرته مسمرة على منمنمات «الموكيت»: «ماذا حدث ؟». الولد اندفع يبكى، والمرأة رفعت يدها غاضبة وأفهمته أن الولد أهين، وأن أولاد الباشاوات صاروا يضربون. استوعب الموقف، وبحث عن تفصيلاته، بكى مجيد، وقال إن هذا المدرس حقود، لأنه فى حصص التاريخ يشير إلى أن «خنفس باشا» قد خان عرابى، ويضيف من عنده أنه كان إقطاعيا. وهو حين ينطق هذه العبارة ينظر إليه من وراء عدساته الغليظة، ويمط رقبته وكأنه يحرض عليه الزملاء.

الرجل ذو الخاتم انتفض وأقسم أنه سيقطع عيش هذا المدرس، وصرخ فى ابنه أن يرتدى ثيابه ويخرج معه، والأم هزت رأسها علامة الرضى، وأم عبده وراء الباب انكمشت أكثر، وصوت المرأة اقتحم عليها وحدتها: «السفرة تجهز يا أم عبده». همست فى أذن زوجها «هون عليك.. لابد من الغذاء أولا»، ولما أتت أم عبده بالديك الرومى، وأطباق الخضر، نسيت

الشوك والسكاكين والملاعق، فقد كانت تفكر فى الأستاذ حسين. صرخت المرأة فيها غاضبة: «تيقظى.. الحساء ينسكب!» راحوا يأكلون فى شراهة، وجلست هى على «كرسى الحمام» تأكل رغيفها اليابس، وتغمسه بعسل أسود وطحينة، سألت نفسها: « أخشى أن يرفدوه !».. خافت على الأستاذ حسين الذى لا تعرفه، ودت لو تبحث عنه وتحذره.

ماحدث فى بيت الأستاذ حسين

عاد مجهدا ، يحمل قرطاس البرتقال أبوصرة، وحزمة الفجل، فتحت تفيدة الباب، وحملت عنه أكياسه، لمحت بغتة حزنه الأسيان، عللت الأمر بالإجهاد، وحين حدقت فى يده اليمنى رأت آثار الطباشير مازالت ملتصقة، فعرفت أنه خارج لتوه من المدرسة، وذهبت بلفافة السمك المشوى، وضعته فى طبق الصاج، وسخنت الماء فى «الكنكة»، وعصرت ليمونة كاملة على الماء، وأذابت الملح، ثم قلبت «الشبار» ليتملح.. وغرفت الأرز فى القارب «الميلامين» الأصفر، وعلى السفرة فردت جريدة الأمس، وصفت الأطباق، أحضرت محاسن الصغيرة الملاعق، ونادت لأبيها، لم يسمع فقد كان يبحث فى صفحة الوفيات عن أسماء من رحلوا.. قرأ «البخت» ساخرا، وأحس لأول مرة بالرضى عما فعل، لكنه كان يدرك أن الأمر لن ينتهى عند هذا الحد، عض على إصبعه الخنصر، آلمه ذلك، والبنت محاسن هزت منكبيه: «هيا لنأكل!»

استند على كتفها وسألها عن دروسها، فتذكرت الشهادة، أتت بها وأرته درجاتها، وطلبت أن تذهب مع مدرستها إلى الجيزة فى رحلة لترى الأهرام وأبا الهول، هز رأسه أنه لا جدوى، وأن الأمر برمته لا يستحق أن تركب السيارة من أجله، فلن ترى سوى كتل الحجارة المتراصة تطعن الفضاء، وتحتها كان ينام ملك محاط بأساوره الذهبية وحنطته، أخبرها أنه كان يفضل لو أن هؤلاء الأجداد بنوا للناس بيوتا يسكنونها.

ظنت أنه يمازحها، فضربت بقدمها الأرض، وقالت إنها مصممة على الزيارة فرجع إلى سترته المدلاة من المشجب، وأخرج الحافظة، وانتزع

جنيهين، وجلس معها يأكل، زوجته تفيدة تقشر السمك المشوى، وتمد له يدها بالفصوص، وعيناه تجريان على سطور الجريدة التى تشربت الماء الملح، وخبر صغير يحتل ركنا مهملا: «التحقيق مع مدير عام يختلس ٤٨ ألف جنيه» ضحك بمرارة وسألته تفيدة عن السبب، أشار بيده إلى الخبر سيخلص نفسه مثل الشعرة من العجين!». سألته عن عاطف: «هل أرسل خطابات ؟» توقف عن المضغ، كتم عنها خبر وصول خطاب ابنه الأخير، طالباً خمسين جنيها لشراء مراجع لكلية الطب، كررت السؤال: «ألم يرسل ؟». هز رأسه، ما جدوى أن يراوغ: «نعم. أرسل، ويريد أن ندبر له خمسين جنيها!» : « وماذا ستفعل ؟ » . مط شفته السفلى: «نقترض كالعادة. لكن المشكلة: هل أجد من يقرضنى ؟».

مدت محاسن يدها بالجنيهين: « ليس من المهم أن أذهب للرحلة !» كانت عيناها منديتين بالدموع، ضغط على يدها: «من حقك أن ترفهى عن نفسك ! » قامت الأم من جلستها. وقفت أمام الحوض فى الصالة تغسل يديها، وأسرعت إلى الدولاب، فتحت علبتها القطيفة، أخرجت إسورتها الذهبية على شكل أفعى، تأملتها طويلا، تحسست نعومتها، مدت يدها إليه: «بعها وفك ضيقتك :» مد يده وأخذها صامتا، لم يعقب بكلمة فقد كانت الكلمات محتبسة فى حنجرته، وخبطات غليظة تتوالى على الباب، ترجه!

ماحدث فى القسم

جلس الضابط فى مقعده الهزاز خالعا كابه، واضعاً إياه أمامه، يفرك يديه فى حبور: «أهلا» . مكتب بيضاوى فخم، وتليفون أبيض كالشمع غير التليفونات السوداء التى يراها فى مكاتب المديرين. نظرات المخبرين فى الطرقات تخزه. عمل احتياطه للأمور، فمر على عبدالسلام البقال، اشترى منه علبة سجاير سوبر على «النوته»، بالرغم من أنه لا يدخن، مد يده بسيجارة للضباط وكما أوصته تفيده، كانت كلماته كلها يسبقها لفظ «أفندم !» قال الضابط إنه لا يغير صنف سجائره، وفتح علبة الروثمان، وانتزع سيجارة أشعلها.. كان يعرف لماذا جاء. تغابى وسأل: «لماذا طلبتنى ؟». ابتسم الضابط، وأمسك الكاب وضغطه على رأسه، فبدا أكثر

وقارا، كانت تبدو عليه طيبة ريفية يخفيها خلف خشونة صوته: «لماذا أنت عجول ؟» ضغط بيده على زر مثبت بالجدار خلفه، لمح على الضابط المقابل قيودا حديدية لامعة، وصور بعض الخطرين تبدو ملتقطة من مختلف الزوايا.. وعلى المكتب زهرية بها ورود من البلاستيك ويافطة أمامه تماما قرأ فيها «الشرطة فى خدمة الشعب».. أتى رجل يتلفع بكوفية، ويرتدى بالطو رماديا كالحا، رفع يده بالتحية منتصبا «كالألف» : «شاى ولا قهوة؟» هز الأستاذ حسين رأسه معتذرا، فوكزته يد صلبة: «شاى.. سكر خفيف !» الضابط اتسعت ابتسامته: «هناك بلاغ قدم ضدك.. انت ضربت ابن الشوباشى «بيه». والضربة موجعة.. مهما كانت الدوافع.. فأنت مخطىء.. ما علينا.. ماحدث قد حدث.. والرجل حضر إلى المأمور مصمما على فتح محضر بالواقعة، وأنت تعرف مثل هذه الأمور.. نيابة ومحاكم و «بهدلة».. الرجل كان ثائرا لدرجة لا تتصورها.. ابنه مفيد يقول إنك تشبه أباه بخنفس بيه وتتهمه بخيانة الثورة العرابية.. أهذا كلام ياأستاذ؟ !»

لأول مرة منذ دخل هذا المكان المقبض، ضحك الأستاذ حسين، وفتح فمه ليشرح الموضوع من أوله.. وفى تلك اللحظة، سمع صراخا متقطعا ، وأنات إنسان يضرب، فبلع لعابه وسكت. أتى الرجل بالشاى، ومد يده يبلل ريقه الناشف بجرعة ماء.

واصل الضابط ابتسامته: «المأمور بنفسه تدخل، وأقنعه بأنه سيحل الأمور بمعرفته، وأنت تعرف الشوباشى «بيه».. غامر الناس كلها بأفضاله، أنت بالطبع تعرف أن عنده أكبر شركة استيراد وتصدير فى مصر..»

تنحنح الأستاذ حسين، وكح، أخرج منديله وبصق، كانت كلمات الضابط تأتى الآن ممطوطة: «بأمواله يشترى بلدا.. ألا تعرف !» فتح فمه ثم أغلقه سريعا: «بالمناسبة، يقول إنك تشتم رجال الانفتاح فى دروس التاريخ الحديث، وإنك بهذا تقصد أباه.. هناك تعليمات اعتبرها نصائح.. لتقتصر فى شرحك على موضوعات الكتاب . لن أثقل عليك.. لا تحارب معركة

خاسرة». اقترب منه وهمس: «هذا الرجل رأس ماله ٣٠ مليونا من الجنيهات «فوق»!

وللمرة الثانية يفتح فمه ليتكلم فتأتى الصرخة أفظع هذه المرة: «لكن»! ينصت ساخراً، وابتسامته تشى بالثقة، فيمضغ حروفه الجوفاء والأنين الخافت يأتى ، لاشك أنه لص وقد سرق «دكر بط» أو قص حبل غسيل بما عليه من ملابس.. على مضض سكت.. وكأنه يفتح كتاب التربية الوطنية ويقرأ فى الصفحة العشرين: «لكن يا حضرة الضابط، كل مواطن حر فى ظل الجمهورية، ثم إن ابن الشوباشى مثل أى تلميذ، لا يوجد بينى وبينه أى ضغينة. أنت تعرف أن حكومة الثورة الرشيدة تتبنى هذا الاتجاه». أحس أن كلماته خاوية، كان وقتها قد فرغ من شرب الشاى، وطعمه كالعلقم فى فمه، ومن الدور الأرضى جاءت الصرخة هذه المرة أنينا مكتوما، والرجل ذو المعطف الرمادى الحائل دخل، ورفع الصينية، وزغر له، أما الضابط فقد قال بلهجة آمرة: «لا وقت عندى أضيعه معك.. لابد أن تعتذر لتلميذك أمام زملائه.. هذه أوامر صريحة وليست نصيحة.. إن لم تفعل ذلك، فلست مسئولا عما يلحق بك من ضرر.. تأكد أن المسألة لن تقف عند مساءلتك أمام النيابة».. الأنين مسحوب من الروح وانسحاق المشاعر كتراب ناعم: «وقد تنقل إلى الصعيد» ! الأستاذ حسين نظر إلى حذائه الموحول وهز رأسه:«أتركنى أفكر.. ربنا يفعل ما فيه الخير! »

أدار ظهره، وخرج يجر ساقين منهكتين!

● **برقية**

السيد/ مدير الإدارة التعليمية

أرجو قبول استقالتى من وظيفتى كمدرس أول للتاريخ

بمدرسة طه حسين الثانوية.. وأحتفظ لنفسى بأسباب الاستقالة.

حسين المصرى

متتاليات حزينة

(١)

دلف من زقاق معتم إلى مدخل بيت واطىء وانثالت حفنة من تراب فوق رأسه، دبت قدماه المتعبتان على الدرج الخشبى، تحسس بأطراف أصابعه الباردة الزجاجة فى جيب بنطلونه، كحته المبحوحة تسللت فى الليل، وملأت (نخاشيشه) رائحة التوتر، اصطدمت ركبته بإحدى درجات السلم، فسال الدم، وتحسس ملمسه اللزج، هزرأسه، ودفع الباب المغلق بقدمه، صار بين كتبه، تعلوها طبقات أترية، اصطكت أسنانه عندما كان المطر يهطل فى الخارج، أشعل لمبة الجاز وجرت أصبعه على أول السطور فى كتاب ضخم، أغلق دفتيه، أطل من نافذة مكسور زجاجها، صاح فى البرد والوحشة: آه.. ياكلاب!

كانت الكلاب تعوى فى الخارج، جماعات متآلفة تسير تحت أفاريز المنازل، تحتمى بالبواكى وتحك جلدها فى الأعمدة المنتصبة، وتزوم.

دعك عينيه المجهدتين، وحملق فى المنظر أمامه. كانت المرأة تلبس قميص نوم « باتستا » شفافاً أحمر اللون، تتمرغ فوق سريرها، وقد تعرى ثدياها، وغبش الزجاج لم يمنع الرؤية، ضرب بقبضته الهواء البارد، وبصق فى الطريق الموحل.

(٢)

أجلسوه فى الاستراحة تفصل بينه وبين الطرقة ستارة بنية، عليها نقوش فرعونية لبنات يرقصن ويضربن على أوتار مشدودة، حين جاء الرجل الجهم الوجه نقب فى وجهه عن ملامح تمرد، خبطه برفق على كتفيه: بطاقتك!

أخرجها فى تململ، فأخذها وراح يدون بعض الأرقام والمعلومات، ثم ألقاها على البلاط الأسود المربع:

لامؤاخذة.. وقعت بلا قصد!

تركها حتى خرج الرجل، ثم انحنى والتقطها، نظر فى صورة البطاقة والخاتم الأسود المستدير يحتل الزاوية اليسرى، كان يضحك، وشاربه الكث يهتز، اعتراه ضيق شديد، ود أن ينتهى من هذا العبث، أزاح الستارة بظهر يده، وسار خطوات فى الممر.

جذبته أيد مدربة، دفعته فى كتفه، نظرت بعيون زجاجية إلى وجهه القلق، بابتسامات مصقولة أفهموه أن دوره لم يحن.

كان يخشى أن تفوته فرصة الحصول على كيس السكر، وعلب المربى، وأكياس المنظف، نظر فى ساعته، وعرف أن زوجته الآن قد انتهت من إعداد المائدة، وعليه أن يحضر الأرغفة الساخنة، وقرطاس « الطعمية»، فاجأه الرجل ذو المعطف الرمادى: «تفضل» ! دخل الحجرة، وألقى نظرة سريعة على المكتب البيضاوى الأنيق، والتليفون الأبيض اللامع، و«الأباجورة» ذات الضوء الباهر، قام وصافحه فى تودد خبيث. ضغط على زر بالحائط خلفه، دخل رجل بمعطف أسود تميزه جروح قديمة بالجبهة، وقف منتصبا: أحضر الملف الذى طلبته منك بالأمس. مال على أذن الزائر المتوجس:

يجب أن نتفاهم!

(٣)

عاد فى صباح اليوم التالى مباشرة، فأخبرته زوجته بكل شىء، أتوا فى «البوكس» الصباح، انتشروا فى الحجرات كلها، قلبوا الكتب والمراجع والدوريات، أداروا شرائط التسجيل، بحثوا بين صفحات أشعاره، فتشوا فى حقيبتها الجلدية، وكراسات ممدوح الصغير، فكوا جهاز التليفزيون بمفكات دقيقة، وخلعوا الغطاء، تحسسوا اللمبات، شقوا المراتب والحشايا، أخذوا صورة والده من صدر الصالون.

أدرك أنه افتقد الصورة التى ظلت لسنوات طويلة تسرى عنه همومه، أجهش فى بكاء مرير، أحاطته بساعديها، أحس بدفء جسدها، سرت فى

جسده قشعريرة، وفى المساء حاول معها لكنه فشل، ففتح النافذة، وكلم الليل أن ينجلى!

(٤)

لما أودعوه المصحة ضرب بقبضة يده زجاج النافذة، وخمش بيده وجوه الرفاق، قرض أظفاره وعض على اللحم، وفى الليل بكى، جاء الطبيب بمعطف أبيض، وغرس الأبرة المعدنية الطويلة فى ذراعه. نام طويلا. تروح الشمس وتجىء وعيناه فى محجريهما تدوران، وتنغلق الجفون، فى الليل أحس بدبيب يسرى فى جسده، تقلب على فراشه. كانت المرضة تبتسم له، حاول أن ينسى كل شىء، ابتسم لها: هل تكتب الشعر حقا؟

هز رأسه، عب النسيم الطازج، وطرد الهواء الفاسد من رئتيه، فى صباح اليوم التالى عادت إليه بزهرة، وضعتها فى كوب به ماء لمنتصفه، حاول أن يزيل الأشواك، فانغرست فى يده شوكة، حاولت برفق أن تنتزعها، عندما نجحت تحسس بجرأة شعرها المنسدل فى نعومة، تذكر فشله القديم، رحيلها فى الليل مع ممدوح، المسمار الصدىء الذى بقى بعد أن انتزعوا صورة الأب.

طفرت الدموع من عينيه، عينان بنيتان منطفئتان، وجسد أرهقه الرحيل فى بحار مترعة شواطئها بالأحزان. نبدأ من جديد!

هز رأسه موافقاً، فانصفق الباب، ودخلوا بمعاطفهم الرمادية، وبحثوا فى أوراق تحت الوسادة عن آخر قصائده التى لم تكتمل، ومزقوها، نثروا المزق البيضاء الصغيرة فى حديقة المصحة، نظر إلى عيونهم البصاصة، وأغرق فى ضحك مؤجج، لكموه فى وجهه، داسوا على أطرافه بأحذيتهم، وعندما انسحبت روحه من الجسد، أو كادت، قاوم بإرادة مستميتة، نظر واللطمات تتوالى على وجهه إليها فى ركن الحجرة، حاول الابتسام، هزت رأسها مشجعة، ثم فجأة تدلى الرأس على الصدر بلا حراك!

(٥)

الطريق موحش، الترام له صرير أليف، تمتد يده إلى فنجال القهوة، ويتذوق الحبيبات الناعمة، على صدغيه تتناثر شعيرات سوداء فى فوضى، أوراق مثنية الحواف ومتسخة، بين دفتى جريدته المطوية، يأتى الجرسون ليأخذ حسابه، ينظر إليه فى ريبة، تقع عينه على الأقلام المتراصة على المنضدة بجوار كوب الشاى الفارغ، والسطور القليلة المضطربة، يهز رأسه ويمضى.

يمط شفتيه فى جلسته، وتقع عيناه على التمثال النحاسى الضخم فى المواجهة، يلمع لمعانا أخاذا تحت أضواء مصابيح الصوديوم.

« آه لو تعرف ياحضرة الجرسون من أنا. آه لو لم يفعلوا بى مافعلوا، لكان لى الآن تمثال من النحاس الخالص، ولوضع تمثالى فوق قاعدة من الرخام الإيطالى؛ ولحفروا فوق القاعدة أكثر أقوالى شهرة. ماذا كنت أختار؟ ضيعتنى الأحزان وسلبونى الوطن؟»

(٦)

تنتظره فى الليل عندما يحضر، تقاسمه الخبز والفراش، ترمقه بحنان دافىء، ترحل عنه نصف أحزانه، ثوب الليل موشى بنجوم هى أحلامه التى هجرته. قطته تموء فتسقط بداخله عشرات الكواكب، وتهوى النيازك مشتعلة، قلبه ينبض وهذا يكفى الآن.

« قلت لهم، وهم يهزون كتفى بدباشك بنادقهم، إن الوطن حق، والموت حق، وأن غيرتهم وخوفهم على قوانين الحياة، وترتيب الأشياء أكذوبة»..

كان هذا قبل أن تهجره الزوجة، تأخذ طفلها، وملابسها، وصورة الزفاف المؤطرة بفرح كان له ذات يوم!

(٧)

« ياحـزن ارحل.. اصغ لوجـيـبك، العلة ليـست فى بدنى، لكنهـا فى نفوسـهم. تنأى عنى كل المباهج، وتغدق على الأحزان شجناً صرت آلفه. ياحزن.. بث فى أزقة نفسى عطراً مختلفاً، فنفسى تفيض بالحيرة، تتدفق فى شراينى شلالات نور، وهمهمات غسق حنون.. فهل تصغى؟».

من يقطف الثمار المحرمة؟

مدخل للحزن

لم تكن تحب سوى المدن، ولما جاءت الورقة بخاتمها الأسود المستدير، وأريتها إياها، أشاحت بوجهها، وغادرتني سريعاً، بعدما شحبت الابتسامة، تركتني أتخبط بين احتمالات السفر والبقاء. ولما حل الليل بالصقيع وأضواء النيون، هزني النادل، ووضع كوب الشاي الرابع على الطاولة الخشبية. هززت رأسي أناشده الجلوس. رأيت الحيرة لكنه أطاعني. وحكى لي حكايته. فرأيت أن حاله من حالي وأن بني آدم إن لم تعظه الحكايات كان كالحجر الصوان الذي لاحس فيه ولاروح، أو كالهواء الذي يتحرك ويحرك الأشياء، لكنك لا تستطيع أن تقبض عليه.

كنت راغباً في البكاء، لكن المآقي شحيحة العطاء، وبؤبؤ العين يلتمع والجفون مثقلة بالحزن.

رفعت كوبي فارغاً، كنت قد شربت الشاي الفاتر، وامتصصت « التفل»، حطمته - في غضبي - على الحافة الخشبية المستديرة، فجرحت يدي، ونافورة الدم لاحظتها بزهو. قطع حكايته وجرى بعيداً. صوته منكسر: أعوذ بالله!

اختلطت أضواء النجوم الخابية، بذلك الصوت الذي يتردد داخلي: أنت وحيد! قمت وبقايا حكايته تسربل عقلي، و«نجلاء» يؤطرها غضب بركاني محموم. ناداني صديقي الحوذي أن أصعد العربة، صببت لعناتي فوق رأسه، وخز الحصان المسكين بالعصا الرفيعة المدببة، ورأيت منخاره يخرج على هيئة حلقات متتابعة، بينما قوائمه تخوض في برك الماء على جانب الطوار الأيمن ويبتعد. سقطت في اللحظة نجمة، وتصاعد الصهيل في آخر الشارع، داست الحوافر طفلة حملتها يوماً بين ذراعي، وعدوت أبحث - في الظلمة - عن أوراق الجوافة الذابلة، شممت رائحة بخور استعدت معه دعائي القديم!

لكزنى صاحبى فى جنبى، وأنا فى طابور الفرز، وقفت منتصبا كعمود خرسانة فى عمارة الشيخ رجب الذى كان يشحذ وأتته النعمة فبنى عمارات بعتبات رخام.

كنت أرتعش، ولما جاء دورى، عرى صدرى، ووضع سماعته على صدرى، أمرنى أن أشهق وأكح، ونقر بأصابعه المدربة على عظام ظهرى، وأمرنى أن أخلع سروالى وأن أسعل مرات، وضع يده باحثا عن عروق نافرة، ولما انتهى من فحصى، دفع بورقتى المربعة التى تحمل صورتى بعد أن وقع: «سليم!».

بعد أيام كنت أنصب خيمة فى صحراء، لا ترى فيها إلا رجال لوحت وجوهم الشمس، وصبغتهم بلون نحاسى، وكآبة سوف تعتادها، وسحالى تعبث على المدقات الجيرية.

زحفت على ركبتى، اجتزت الأسلاك الشائكة، تخطيت حقول الألغام، هصر إصبعى زناد البندقية الآلية، صوبت تجاه الشخوص المتحركة، وضعوا على كتفى شرائط سوداء كحرف السبعة، ملأوا «الجربندية» بخزنات حديدية وطلقات كاشفة، وزمزمية، وكوريك للحفر، وعندما أذاع «الراديو» المارشات العسكرية، وجدتنى فى مواجهة دبابة «باتون» عملاقة.

علمتنى أمى - وارفع يدك عن خدك ياصديقى - من صغرى أن أمكر كالثعلب، وأحذر المفاجأة، رميت نفسى فى الحفرة التبادلية، وانطلقت دفعة رشاش ثقبت الخوذة، تحركت شفتاى بالشهادتين، كان الموت على بعد سنتيمترات، ألصقت وجهى، بل دفنت حواسى كلها فى التراب الرملى الناعم الملتهب، والجنزير له صرير رتيب. لا أحسن الحكى، ولكننى زحفت حتى أن يداى تسلختا، وعند حافة المياه ألقيت نفسى، لم أكن أجيد السباحة، لكن الرغبة فى الحياة، وحب الزوجة وأطفالى الصغار. وعدت بأقدام متورمة، ووجه مكلوم، فى الليل تسللت درجات السلم،

وضعت المفتاح الصدىء فى ثقب الباب، أدرته، وعندما خطوت إلى الداخل، امتلأت خياشيمى بعطر «البروفسى»، ووجدتها بقميص النوم الشفاف مع غريب. رفعت يدى لأصفعها وأقتله، فانسرب كرمل ناعم من المكان، واحتوتنى حسرة.

فقل لى بالله عليك، هل أنا حزين؟ وماذا يفعل الحزن فى زمن وغد.. وليل بلا نهار؟!

تأملات الليل المعتم!

كان يسير برأسه الأصلع فى زهو، وإلى جواره حبيبتى الحسناء التى اغتصبها بنقود ودفتر شيكات وسيارة فارهة، نجلاء التى تعشق المدن، دس يده فى جيب سترته، وحرك الخاتم الذهبى المرصع بفص الياقوت تحت الضوء الساطع، فانفتحت الأبواب، وبسطت السجاجيد، وابتسمت الشفاة، وغاب كرشه الضخم خلف حزام أسود عريض.

كنت أرمقه يشعل سيجارة بأصابع مرتعشة. أعرف أنه سيفشل فى تحقيق سعادتها، ممزق بين الحزن والتشفى. أعرف أن عربته السوداء المقفلة ستحتويها، وإلى قصر يشرف على النيل ستكون جلستهما بين أصص النرجس وأعواد الريحان، وقفص يتأرجح داخله طائر بريش ملون، تطعمه بيدها فلا يؤذيها، بهجة زائفة.. وكنا نسير سويا متشابكى الأيدى على صخور « قايتباى»، تطاردنا رشاشات أمواج صاخبة تتحطم على اللسان الصخرى، وعدتنى أن تظل معى، رائحة اليود كانت تمنحنا دائما ذلك الإحساس الشفاف بتحقيق الحلم!

نبتاع أكواز الذرة المشوى، ونتقاسم فرحاً زاهياً. ونسهر حتى الساعات الأولى من الصباح نعد مجلة الحائط التى يمزقونها فى الليل. يدعونا الرجل الأملس بورقة صغيرة، تقودنا إلى المخفر، يبتسم فى وجهينا ابتسامته المصقولة.

لماذا تهاجمون البلد؟

صفعات، وركلات، ووعيد، ثم نعاود لعبتنا بنصف جنون ونصف خوف. آخر مرة مزقوا بلوزتها، وظهر صدرها عاريا فأخفته بدفترها البرتقالى الغلاف. أحسست أننى فقدت شيئاً عزيزاً، سراً يخصنى وحدى قد انكشف، كنت أفكر بعقلية جدى الحاج حنفى صاحب مخزن الحبوب، الذى زود جيش عرابى بالغلة أيام «الهوجة»!.. حين خرجنا تسرب الدفء من بين أصابعها، وبكت فى الليل.

كان يحوط منكبيها بمعطف الفراء، ويبصق من نافذة السيارة، ويضحك بمجون، ولم تكن الفتاة التى أعرفها وتعرفنى.

فياأيها النادل الكريم، كيف تمنعنى عن الحزن. والحزن فى خلاياى يمتص كل بهجة؟!

حكاية الصديق فى الليلة التالية ليسرى عنه

اللهم اجعل كلامى خفيفاً، وحروفى من مسك وعنبر: الدنيا لايدوم صفاؤها، والأيام فى حركتها كالساقية القلابة، وأنا الوحيد فى هذا العالم الذى لاتفرحنى ضحكة فتاة ولايطربنى إطراء سيدة.

جدى المسن ربانى على حكمة، ضعها كالحلقة فى أذنك: «خائب من كانت صناعته الحريم.. ومهموم من اهتم بالنساء.. وفى حزن مقيم»

وقد أورثنى أبى - الحاج سلطان رحمه الله - بستاناً فى أطراف العاصمة، بعيداً عن الغبار والضجيج، هذا البستان فيه أحلى الفواكه وأشهاها. أذهب إليه فى يوم عطلتى مع الخلان، نلهو ونتسامر، ونغنى فى الخلاء للقمر الذى هو بعيد، وللشمس التى تحتجب خلف السحب فى الشتاء، وتزقزق على أغصانه العصافير، وتسقط ثمار النبق بين أيدينا.

حدثونى أن أكمل نصف دينى بالزواج، فرفعت يدى رافضاً، فلما استحلفونى قلت: أفكر. الحوا على فى الجمعة التالية أن أذهب إلى الحاج حامد أكبر تاجر حرير فى البلدة، وصفوا لى جمال بناته، وحسن

تربيتهن. شاورت الأهل فحمسوني. واختصصت خالتي (سمية) بسر لاتبوح به: «ابن اختك - ياخالة - لاينجب - مقطوع الذرية - أبتر - بلا وريث أكون». قالت والبكاء يخنقها: «أقدم على الأمر.. وربك كريم. بكيت بين يديها: ياخالة، لاتجددي أملاً انقطع. الأطباء وهذا عملهم لايخفى عليهم مستور. عندما كنت طفلاً أصابني داء لعين. جعل خلفتي مقطوعة ولله في خلقه شئون».

أخفيت أمري إلا عنها. وخطبت الفتاة بمثقالين من الذهب، وأساور فضة وحراير أشكالاً وألوانا، وقلت للرجل: أنا طوع بنانك.

زوجني أجمل بنات الدنيا، وأكثرهن لطفا. أرتني من فنون الحب العجب العجاب. وصرت بين يديها كطفل صغير يتعلم ويتعلم. وعرفت أن انصرافي القديم عن النساء كان أمرا أخرق. راقبتها تصنع ملابس الولد الذي لن يأتي، وتحيك له القميص والسروال، بعد القماط. صمت ولم أتحدث.

ولما انتفخت بطنها، ظننته مكر نساء، وقلت: ستنكشف اللعبة عن دمية لاطفل من لحم ودم. ولما افتعلت المخاض، قلت في نفسي لأنتظر ما تأتي به المقادير. وحين صرخت صراخا شق الليل ووصله بالفجر، دفنت وجهي بين طيات الفراش، أتقلب من الشك والريبة.

زغردوا من خلف الغرفة المغلقة، وأتوا به طفلا جميلا بريئا. قالوا: «ماذا تسميه؟» كان السؤال كالسكين يحز عروق الرقبة، قلت: كل الأسماء سواء! عاودوا السؤال، فانطلقت ساقاي للريح هاربا وأنا ألهج بدعاء أن يمنع عنا الله كل مكروه.

تركت المدينة والزوجة. ولا أدري من اين الولد أتى.. وخالتي (سمية) وأطباء المدينة يعرفون السر؛ وقلبت وجهي بين الفجر والظهيرة والغسق، فازداد كمدي. فاستمسك بالصبر - ياصديقي - وابدأ من جديد مثلما بدأت. وخذ مني حكمه.. لاتقطف الثمار المحرمة، ولو كانت بك رغبة في

امتلاء الجوف وبل الظمأ.. أورثك اليقين - وتأمل - تعكز على ألمك واترك بستانك إذا حلقت فى فضائه الوطاويط!

وكان لابد من السفر

باغتتنى بالرفض، زينت لها الأمر؛ فى اليمن السعيد أعمل معلما للأولاد الصغار واقبض الريالات، وادخرها، لنعود بعد أعوام أربعة، نبتاع قطعة أرض فى أفخر الأماكن، ونشيد منزلاً بأدوار خمسة، ونحوطه بحديقة غناء، فيها أشجار مانجو وتين ولوز، يكون لنا سيارة فارهة بزجاج أسود، نركبها فنرى المترجلين، ولايروننا. ندوس « بنزين» فنطير فى السكك الممتدة كبساط ريح، إنها سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة.

مطت شفتيها، وهى تحب المدن، والنيون يأسرها، والضجيج تستشعره أمنا! قلت لها - يا أصدقاء - إن اليمن خضراء، وكلها حقول مزروعة بأشجار البن، وأن تربتها بركانية خصبة، فأخرجت - هى - من رصة الكتب مرجعا جغرافيا، وبحثت عن البلد الذى إليه أسافر، أشارت بإصبعها: « بعيدا!» قالت إنها لاتحب السفر، ولا ركوب الصعاب، والبحر يصيبها بالدوار، وأن أطفالنا الذين يولدون فى الغربة يموتون وتنقطع الخلفة - وكأنها تعرف حكاية صديقى الذى ولدت امرأته ولدا فأنكره - تفر من عينى الدمعة، وأكاد أخنقها بيدى، وأقول لها: «أنت تتبطرين.. يانجلاء.. ياعشيقة المدن». عتمة تحوطنى، هنا الزحام والصخب والعفار يطمس العقول والملامح، فلنفر من المصير المعتم. تسير إلى جوارى مطرقة الراس، أشعر أننى مربوط بسلاسل من حديد وأنكال، وسم زعاف يسرى فى البدن.

قالت لى امى قبل أن ترحل: « إياك والنساء».

وحين فككت رابطة العنق، تساءلت وباعة « السريس» يجلسون فى صمت يسوون بأصابعهم الأعواد الطرية: «لماذا يكون السفر؟»

وكنت فى سفرى إلى القاهرة قد رأيت الأشجار تفر، والمراعى، وحقول

الحنطة الصفراء تتماوج، والأبقار تخور، سمعتها، والأبدان المنهوكة لرجال عراة الصدور، رأيتها، والأخضر يطوق القطار الزاحف ويلتف حوله. ماذا يفيد البكاء؟ لت صديقى فى الكلام وعجن، وسرى صوته النحيل بالنصيحة. وضع ساقا فوق ساق، وجذب أنفاس النرجيلة: «كلهن سواء»

كانت الدنيا باردة، وكنت وحيدا، كيف أبارح المدينة اللعينة، وأناطح الغربة فى بلاد الله.. خلق الله. قلت لنفسى: قبض ريح هى الدنيا. وقال جدى، وصغيرا كنت: «إذا دخلت بلدا فتوجس حتى يأتى وقت صلاة العشاء، وراقب المسجد مدخله، هل الناس يصلون أم ينسون فروضهن». كانت الحصر متجاورة، وقد خلا المسجد الا من كهول يتكىء بعضهم على عصى، وشاب ملتح، وطفل يسحب يد رجل أعمى، وقطط تموء مبتردة، والوطاويط فى البيت المهجور تصدر « خرفشة». كانت حجرتها بها مصباح له ضوء الصوديوم الكئيب. أطلت من النافذة، رأتنى، ثم أغلقت الضلف الخشبية وأطفأت مصباحها. كنت أتحسس عقد العمل فى جيبى. وأنا أكرر حكمة صديقى تعكز على ألمك.. وما كان لى بستان، فاستبدت بى الحيرة والدنيا ليل نجومه مطفأة!

خاتمة غير حزينة بالمرة

ربطت حزام الأمان بوسطى، أتى صوته الصارم عبر الميكروفون، تقلع الطائرة بعد لحظات. هاجت شجونى. نظرت من النافذة الزجاجية المغلقة، أبصرت المدينة تغرق فى الضباب، والركاب من حولى منشغلين فى قراءة أوراقهم، ووضع حقائبهم الصغيرة فى الأمكنة المخصصة لذلك.

تساءلت وكلى فزع كيف أفلت الخائن من قبضة النادل حين عاد مهزوما. ولماذا يعيد علىَّ حكايته المفجعة كلما أتى لى بكوب الشاى الفاتر؟

أتت المضيفة بطبق من الكرتون الملون، وبه بضع شطائر بالمربى والزبد. ابتسمت فى تصنع، كانت جميلة كالبدر، فذكرتنى بابنة تاجر الحرير التى أتت بطفل لزوجها العقيم.

ملأت خياشيمى رائحة عفونة قديمة،، اهتزت الطائرة، فتجمدت بالمقعد، كان صوت المحرك يزيد من توترى، أغمضت عينى، وسرى بجسدى خدر لذيذ. بين النوم واليقظة أخذنى صديقى العقيم من يدى، وراح يجوس بين أشجار بستانه. كانت كل الفواكه الدانية قطوفها محرمة.

وكنت أشتهى ثمار المانجو، وثمرات التين. لكننى خائف. الجوع يقتلنى. وأجزم أننى مددت يدى.. وقطفت.. بعضا من الثمار!

حكاية من الزمن الردئ

كان من الصعب أن تمد يدها، أحسست بالخدر يسرى فى خلايا الجسد الممدد، لمست بوجهها مربعات القيشانى الأزرق اللامع، لسعتها البرودة، تحفزت كل ذرة فى كيانها للمقاومة، لكن الرؤيا أتت كالبرق، ساطعة ومضيئة للمناطق المعتمة فى سفرها الطويل، حاولت وفشلت، ارتجفت داخلها أمنيات طفولة رحلت قبل الأوان. تأوهت، دقت ساعة الحائط فى رتابة: تن، تن، تن؟ قرأت نقوش المنزل القديم فى الحارة المنقوعة فى فقر توارثته الأسرة أبا عن جد: « بالسلامة ياحاج »... وهنت أنفاسها، تلاشى كل أثر للرؤيا، وصارت الكائنات والأشياء رمادية الملامح والغاز الخانق يتسلل . قالت لهم عندما حدثوها: «أنا آتية معكم: «وأغلقت من خلفها الباب، وسارت فى الممر الطويل الطويل، أحست أنها انعتقت.. كان من الصعب...

***

قالت لها أمها فى حدة إنه عريس مناسب، وإذا رفضته فمن المستحيل أن تعوضه. هزت البنت رأسها فى رفض قاطع، وقامت إلى النافذة، فأبصرت الليل حزينا، مدت يدها، وشعرت براحة غامضة تسرى داخلهاو قطرات المطر تتساقط على كفها الصغير، فيبلل نسيج «الدانتيلا»، وتلتصق ببشرتها، أحست بخطوات الأم تلاحقها، ركنت كوعها على كتفها برفق: «فكرى !».

النيل لم يجف بعد، والأمطار تهطل غزيرة على هضبة البحيرات منذ آلاف السنين كما تسقط فى فصل الصيف على جبال الحبشة، فيحفر النهر مجراه، قد تجف بعض الروافد وتتشكل الدلتا كل حين، إلا أنه يأتى فى موعده متدفقا بالوعد والخصوبة. أدارت الدبلة الفضية فى إصبعها، هزت رأسها للخواطر التى اجتاحتها، وعصا مدرس الجغرافيا التى لم يضرب بها قط ـ بل على الأرجح يشير بها إلى العواصم والموانى ـ تهتز

فى الفضـاء، يهزها بكلمـاته، تلك لحظات الصبـا، تفـتح الأزهار على الجسد، وبكارة الأشياء، واستدارة الثديين، ثم البكاء المرير على الوسادة فى منتصف الليل، قـربـإليها كوباً من عصـير الليمـون. هزت رأسـها: «أريد فنجان قهوة»..

أشار بيده إلى النادل، أحنى جذعه. وهز رأسه مرات وابتسامته تتسع. أمسك يدها، شـعـر بهـا باردة كـالثلج، أحـاطت يداه بهـا، سـحبـتـهـا كالمأخوذة، أدارت وجهها نحو الأشجار الذائبة فى الظلمة، رغم الهسيس قالت والضوء يتشرب نبراتها: «لابد أن نحسم الأمر!»

انتفضت وقاومت، صرخت فانحبس الصوت، والحنجرة علاها الصدأ، انبجس الدم يغرق الحدائق، وكان جسداً ممدداً تعلوه الأصداف، وقواقع البحر، وعشب أخضر كثيف، وقوس قزح يلون الفضـاء، والمطر رذاذ خجول، رفعت ذيل فستانها، حاولت أن تخوض فى اللجة الحمراء القانية، وأن ترى الوجـه.. ظنت أنه مـيت، لكنها عندما اقـتربت أحست بأنفاسـه تضـرب صـفـحـة وجـهـهـا، كـان تنفسـه «مكروشـا» أول الأمر، ثم انتظم، تحركت الأطراف حركة بطيئة، ورفعت وجهها تجاه الفضاء، ودهشت لأن القوس الملون شحب، والطيور البيضـاء رفت فوقها، مدت يدها تتحسس النبض، وحينئذ مد يده، وجذبها نحوه، التصـقت بصدره، وانغرست الأشواك فى عنقها، صرخت..

***

كانوا خمسة، تقدمت بخطوات مضطربة إلى حجرة الضيوف، حاملة «الصينية» ، وفوقها أكواب الشاى ، كانت لا ترى شيئاً، تسير كالمنومة ، أطروا أدبها وجمالها ورقتها وفي داخلها لعنت الأيام، ونظرت إلى صورة الأب فى الإطار الأسود. كان ينظر إليها نظرته الحانية. طلبت منها الأم أن تجلس، ففعلت، ورأته يحرك خاتمة الذهبى، ويقرب ما بين حاجيبه، ويحدثها عن رصيده فى البنك ولون سيارته ورخصة القيادة التى أصروا

على تجديدها بعد العودة من «الخارج»!، فأحست بانقباض فى قلبها، ولم تدر لماذا استرعى انتباهها رابطة العنق المحبوكة حول رقبته، وسلسلة المفاتيح التى راح يديرها حول إصبعه، ثم شعره اللامع، وذقنه الحليق. احست أنها أمام دمية متقنة. ورغم الوجع فى القلب، وانكسار حلمها فقد ابتسمت، وأمها شجعتها بإيماءة من رأسها. ولما رفعت الصينية، رأت الجنيه الذهب فى استدارته يبرق، خرجت مسرعة، ودعوات بالستر تكاد تجثم فوق صدرها .. تطقطق العظام واهنة من الحزن والتعب!

***

النيل يجرى، حدثته واقفة، لم يبك كما أيقنت إنه سيفعل، مد يده بالخطابات، والصور والخاتم الفضى الذى أهدته إياه، ودت فى تلك اللحظة أن تبكى، أن تركع تحت قدميه معترفة بذنبها، أن تنتصر للشيء الرقيق الهامس النبيل الذى جمعهما. نبرة صوته اعتراها بحة خفيفة: أسافر صباح باكر.

استبقت يديه للحظات، ودهم المكان صوت هدير صرير عجلات قطار يمرق فوق الكوبرى المواجه للسور الخشبى. أحست بخيط الدموع ينحدر. وعصا مدرس التاريخ تشير إلى مكان الموقعة، وصوت فرقعة العجلات الحربية تختلط بصرخات الجرحى والمطعونين، وأصابعه الرقيقة تعلوها طبقة من الطباشير، صوته الذى ألفته يحدد أمكنة حقول النفط، والهضاب التى يرعى فوقها الرعاة حفاة الأقدام أغنامهم، ثم الصحراء الجليدية الخالية من البشر، أحست بالصقيع، كل ثلوج القطبين تتجمع داخل قلبها الصغير. صرخت عندما الجثة صدمت العينين، وشمت رائحة خبز يحترق، كان ثمة عصفور يتقافز وحيدا على غصن مهتز، ويمرق نحو الفضاء.

***

نعقت بومة على هوائى التلفزيون فى سطح المنزل المجاور، تشاءمت

أمي، وصممت أن أخلع ملابسي الداخلية في التو، وأعيد ارتدائها مقلوبة، ثم أتت للأحذية والصنادل والشباشب فقلبتها، ولاحت شفتاها تتمتمان: «خير! اللهم اجعله خيرا!» كنت أجلس واجمة أمام المرآة، وحولي صديقات الطفولة: ثريا، وبهيجة، وماجدة، وانشراح. كن يقرصنني في ركبتي ضاحكات، وصوت المغني في التسجيل مشروخ، والمصابيح الملونة تبخ الضوء بلا معنى. رصت المقاعد على الطوار المقابل، وجلس متأنقا على المقعد القطيفة المذهب، وحوله ورود صناعية، وضجة، وعفار! كان وجه خالد يلوح لي، بلحظات صخبة ومرحة، ثم السير حفاة الأقدام على شاطئ «أبي قير» نجمع الأصداف، ونقربها إلى آذاننا نسمع وشيش البحر، كنا نحدث تلك القواقع فتحدثنا عن البنات اللائي سننجبهن. نتشاجر على الأسماء ولا نتفق إلا على اسم «فيروز» كان يحب اللون الأزرق، والبحر، وموسيقى سيد درويش، ويقرأ لوركا وتشيكوف، ويترنم بأبيات أمل دنقل.

ويوم أتى من الميدان ينزف وحنجرته قد غاب صوتها، أسرعت مع الزميلات نضمد جرحه، كان يريد أن يعود، لكن العسكر بخوذاتهم، وهرواتهم يلوحون للمظاهرة، يومها أمسكت يده، شددت عليها: «أنت رجلي»!

***

كان الوطن جريحا. تتفتح قرنفلة حب بداخلي، ثمة فرح هائل، ومتعة لا حدود لها، سخونة جبهته تثير قلقنا، وضعت له الكمادات الباردة، في هذيانه راح يقرأ أبياتاً من شعره المختلط الإيقاعات.

... جالسة بين أيديهم، والإيقاع داخلي يتصاعد، هل أنهي بكلمة مني هذه المهزلة تذكرت وجه أمي الطيب، وابتسامة أبي الشاحبة، كنت أعرف أن أمي قد استدانت لتأتي «بالجهاز» وخالي محمود اشترى منها نصيبها من منزل العائلة، ولم تعد تملك مليما سوى معاش أبي الضئيل.

تهلل وجهها عندما رأتنى بثيابى البيضاء، حدثنى خالد عن المقصلة، وتذكرت مدرسى بعصاه الغليظة، يشرح لنا كيف أعدم الفرنسيون سليمان الحلبى.. طفرت الدموع من عينى..، هزت أمى رأسها «أفهمك».. كنت أحس بالوحدة والألم والصقيع كتمت البكاء، وسرت بين الدفوف بوجه معتم!

***

النيل لم يجف، ولا الدموع فى المآقى، تجلس على الحافة التى شهدت أحاديثهما، تغربل الأيام بحثا عن بارقة أمل.. عندما دخل حجرتها، وقعت عينه على الكتب مصفوفة فوق ركن بعيد، قهقه ساخراً، أزاح بيده الكتب، وأخبرها أن العصر غير العصر. وأن من يملك قرشا يساوى قرشاً، وعرفت نصف الحكمة الخائبة: « من لايملك قرشا، لايساوى قرشاً!».. كان صوت زوجها المقاول كمطارق تدق بانتظام فوق رأسها!

تراءت لها كشافات السفن فى الظلمة ترسل وميضها فى منتصف الليل، وتبحث عن المرسى الآمن.، تشخب الدماء فى العروق.. ودت أن تصعد فى صباح اليوم التالى إلى المنارة، ترتقى الدرجات المعدنية، تصعد، وتصعد، صدرها يعلو ويهبط، والضوء يتسرب من الطاقات الزجاجية، تقف فى «الفراندة» المستديرة، ترى المراكب صغيرة صغيرة على البعد، والبيوت كعلب الكبريت ، والناس كدمى صغيرة تتحرك «بالزنبرك»، وتحس بالشمس قريبة منها، وعفية، تغسل همومها وتمنحها دفئا مفتقداً.

قبل أن يموت الأب، قربها منه، جلست إلى جواره، على طرف السرير المعدنى ذى التيجان المنقوشة، أمسك بيدها، قبلها فى جبينها: « الدنيا غادرة... تحسسى موضع قدميك قبل أن تسرعى السير!»

كانت تدرك أنها أخطأت.. وحيدة بالرغم من ضحكته البلهاء، وحفلات السينما والفسح بالسيارة الفارهة. بعد الزواج بشهر أحست به قلقاً. كان يبدو كالمطارد، يفزع فى الليل، ويفتح النوافذ، ويضحك عاليا مشيراً إلى النجوم المتمعة: « يانجوم الليل يابعيدة.. أنت ملكى!»

يضغط بيده زر النور، ويجذب حقيبة السمسونيت، ويحرك مؤشر الأرقام، يعد أوراق البنكنوت، ويراجع آلته الحاسبة، يدق عليها بإصبعه فتنير الشاشة بأرقام مربعة مضيئة.. يهزها فى عنف: زوجك بعد أعوام يصبح مليونيرا. كانت تبكى داخلها غربة الذات، وبرودة الأيام، وتخفى دموعها فى عتمة الليل!

منعها من الخروج للعمل، صاح فيها: «النقود لا أول لها ولا آخر.. مكانك البيت!» حاولت أن تقنعه بأن كيانها ينشطر عندما تعامل كحريم القرون الوسطى. سألته: « أتستطيع أن تبقى بلا عمل؟» كشر عن وجهه القبيح، لطمها: « أنا رجل.. وأنت امرأة».

فى ساعة المغرب، أمسكت القلم، وأحست أنها نقطة فى محيط كل مياهه مالحة، وأدركت أن حياتها بلا معنى.

كتبت إلى أبيها الذى مات من سنوات، مزقت الرسالة، كتبت إلى انشراح التى سافرت إلى الصعيد مع زوجها الذى أحبته، ثم طوت الرسالة. ارتعشت كل خلجة فى جسدها وهى تفكر فى خالد. كتبت وكتبت وكتبت، ارتجفت خوفا... مزقت الخطاب مزقاً صغيرة، ولم تبك هذه المرة، مر القطار واهتز الكوبرى المعدنى فى ذهنها. ابتسمت ووجه مدرس التاريخ تغزوه التجاعيد، يشهر عصاه فى وجهها ساخطا. كان يوقظ داخلها رغبة التحدى. مازالت تسمع نبرات صوته قوية لحوحة.

***

فى السرادق الفخم الكبير، تدلت الثريا من السقف، تخطف الأبصار بوهجها، كانت السجاجيد الحمراء ممدودة باتساع الممر، والمقاعد متراصة، والوجوم يسود المكان. علا صوت المقرىء بآى الذكر الحكيم، تقاربت الرؤوس تستفسر عن السر فى الرحيل المفاجىء، كان يردد بصوته الواثق، فى حزن مصطنع: يبدو أنه اللغز اللعين. ثم يصمت فتشد على يده أياد كثيرة وتناشده الصبر على المصيبة!

فى الليل فتح النوافذ، وجذب حقيبة « السمسونيت»، وجلس على بطانيته الصوف، يحصى مصاريف الجنازة، ثم اخرج آلته الحاسبة، ودق بإصبعه بدت اللوحة معتمة، قذفها فى فضاء الحجرة، أخرج قلمه «الباركر»، وخط به أرقاماً راح يجمعها، هز رأسه راضيا، بينما دمعة تفر من عينيه، فيما كانت الراحلة تنظر إليه ساخرة، والإطار الأسود يحيط بها فى جلال.



اللحظة المناسبة

هبطت الدرجات أتعثر، فى حقيبتى أضعها، تلك المسودات مرصعة بتعليقاتهم الساخرة: « غير صالحة».

حدثت نفسى ويده بعروقها النافرة، تعيد فتح الحقيبة، وبعثرة محتوياتها فوق المنضدة: « لايهم».

نظرته كالسهم النافذ إلى القلب: « أرنى بطاقتك».

والتحديق فى ملامح الصورة، ويده تتحسس النمش فى وجهى. أحاول أن أغتصب ابتسامة بلا جدوى. ظهرى للشارع، والسيارات تمرق مبتعدة! والشمس تلهب ظهرى، والعرق الغزير يغسلنى، يتسلل فى نعومة فوق عنقى.

صفعتها وألقيت بالنقود جميعها، صرخت فيها.«لاتفهمين عذاباتى». هزت كتفيها وهبطت من فوق السرير بقميصها «الشيفون» والتقطت المبلغ قالت لى بعينيها: « طز فى عالمك!».

قال لى وهو يستدير فى مقعده القطيفة الدوار: «أنظر حولك. انغمس فى الواقع أكثر».بائع الكشرى على الطوار. والكبارى المعدنية معلقة فوق الرؤوس ماذا لو أن الصواميل تنفك. وألواح الفولاذ تهبط رويدا رويدا وتضغط البشر والهموم؟ قال لى وسيجاره الضخم المطفأ لا يفارق فمه: «حدق فى المارة والناس. استوعب همومهم أكثر».

فى المنعطف استوقفنى، طلب منى عود ثقاب ليشعل سيجارته: هززت رأسى معتذراً فى أدب جم: «لا أدخن».

لطمنى على وجهى: «لاتكذب. ومن أشعل النار فى ميدان الجامعة؟» استحلفته بالله أن يتركنى بكيت أمامه: «كان هذا سيدى أيام الدراسة. خمسة عشر عاما غيرت فى الكثير. لم تكن هناك مسؤوليات لازوجة لا أولاد.» وأنا أقرب فمى من أذنه: «انظر.. لاكتب معى. لامجلدات خطرة».

«لا أوراق ولا أشعار ولا شرائط. أنا نظيف تماما.» تركنى وانصرف.

لكن الآخر استدار. ونفث دخانا كثيفاً وأعاد قولته:

« غص أكثر! » النسوة يسرن فى الشوارع بأذرعهن البضة العارية، وأكاد أذوب شوقا.

عجوز ترمقنى فى أمل. أمامها المسابح والآيات فوق قفصها المهشم: « قرب يامؤمن! »

وجه أفريقى، يحمل ندوباً عميقة. نظر إلى وأنا نظرت إلى عجلة القيادة، ينكفىء فوقها، وسيارة سيدة بيضاء فارهة تلمع تحت الشمس. من بلاد الجفاف والمجاعة. لم يبق لى أمل واحد فى قصة تنشر لى هذا الشهر. قال صديقى وهو يلكزنى:

«انظر إلى الواقع. إنه غنى. نحن الفقراء». وكانت أمى تضربنى، لأننى لا أعود آخر اليوم بنقود لتشترى بها طعام الغذاء. اتجول طوال اليوم بحثا عن قطع الزجاج وعلب الصفيح الفارغة وأعمدة الصلب المهملة. وأقف أمام الميزان أنتظر دورى. والنقود فى العلبة الصدئة أمامى. مددت يدى أختلس قطعة نقود فضية. ضبطنى. امسك بيدى. قال لى: «عيب ياشاطر». ثم أجلسنى فى رقة أمام الميزان، وأخرج من جيب سرواله قطعتى حلوى «لا تخف» ولما أقبل الليل ابتسم فى وجهى. قال لى: «لك أصابع من ذهب لتسرق معى». أطلقت ساقى للريح. وهو استلقى على قفاه وظل يضحك. ولم أعد إليه ثانية.

عندما تضربنى أمى. تقول بملء فمها: «يلعن أيام الفقر». فقراء نحن ياصديقى «علوش». ولما رأت قصاصة صغيرة أخفيها فى كتاب الجبر، صفعتنى وانكفأت على ماكينة الخياطة تعمل طيلة الليل.

إذن العيب فىّ، يجب أن أرى جيداً، أفتح عينى تماما. تقاطع شارع رمسيس، وشارع آخر فى نهايته معهد الموسيقى العربية. لأفتح عينى تماما. مبنى مجمع المحاكم. الرجال ينزلون سلم السيارة الحديدية ذات الشبابيك السلك، ويرتمون فى أحضان النسوة، وجوههم جامدة، نظرات دون معنى.

فى ركن السيارة، فى مؤخرتها تماما، كانت امرأة تجلس، وصدرها عريان. بان للحظة ثديها المتهدل. ورضيع يمتصه فى تلذذ. جلست فى استسلام ترمق وجوه الرجال، عساها ترى أبا الطفل.

قلت لنفسى، وأنا أختلس النظر. إنها لقطة ذكية، حية، مؤثرة. فى اللحظة التى فكرت فيها أن «أتبل» القصة بإسقاطات سياسية. نزل الرجل معصوب الرأس. قال لها بنبرة خشنة: «أزى حامد»؟ أشاحت برأسها كالمنومة: «بخير». وانحنت مقبلة يده المرتعشة. أمسك بكومة اللحم يتأملها لبرهة «ابقى غطيه كويس !» وغاب بين الجموع. نظرت إلى الواجهة. كان تمثال العدالة لا يزال معصوب العينين، وكنت أمضى مفكرا: كيف يمكن أن اعيد تسجيل اللقطة، حاملا حقيبتى، وبها مسودات قصصى المرفوضة.

جررت ساقى المجهدتين، واتجهت إلى الطوار. كانت السيارات متراصة، لا تترك لى بوصة للنفاذ إلى الجانب المقابل. نظرت إلى ساعتى. كانت الأرقام تبدو مرواغة. اخاف أن يفوتنى قطار الثالثة. والنقود فى جيبى لا تكفى ركوب «تاكسى» اقتربت من مبنى الأهرام. بواجهاته الزجاجية المعتمة. بلا قصد، بل بلا أى نية فى سوء اصطدمت يداى بنافذة إحدى السيارات الواقفة فى الساحة. كانت صدمة غير مقصودة. لكن يبدو أن الزجاج كان به شرخ. شرخ لا أراه . فإذا باللوح يتناثر، فى دوى مكتوم. روعت. قدماى تسمرتا للحظة. وقدماى بين الشظايا . غير أنى عدوت عائدا فى الاتجاه المضاد. ونظراتى التائهة تسمرت للحظة مراوغة على وجه المرأة معصوبة العينين، والميزان فى يديها يتأرجح، وأنا أعدو. والنسوة أمام المجمع كن يولولن، ويضربن الصدور المصوصة باكفهن الصغيرة. أنى لى أن ارتب المشاعر، وأنفذ إلى جوهر اللحظة؟ كان العساكر بوجوهم المتسخة يزيحوهن فى ملل، والمرأة ذاتها التى قبلت يد رجلها تهز طفلها فى «حجرها» ومن خلفى كان صاحب السيارة يتبعنى

ويشير إلى رجال الشرطة بخوذاتهم التى تعكس ضوء الشمس، فاندفعت فى عدوى، إذ اكتشفت والحقيبة فى يدى، والسيارات من حولى تتدافع، أن حياتى معلقة بالفرار من هذا الموقف العصيب.

كانت السيارات من حولى. سيارات مصمتة، تطلق أبواقها، تتدافع من كل اتجاه. وأنا فى المنتصف لا حول لى ولا قوة. الأصوات تأتى ممطوطة لزجة، وفجأة شعرت بألم هائل، وسمعت الارتطام. كان سائلاً لزجاً ينسرب فى نعومة على الأسفلت الساخن من تحتى. وبرودة مخيفة تغمر كيانى كله. كل ذرة فى جسدى ترتعد. زال الفزع، وتمدد فراغ أبيض هائل قلت بيقين: هى البداية. اللحظة المناسبةلقصتى. لحظتها كانت أياد كثيرة تفرد صحفها، وتغطى وجهى الذى كان بكل تأكيد يبتسم. وراحة كالنسمات الطرية ترطب حلقى، ووجه رئيس التحرير فى اهتزازته المؤكدة: «بالتأكيد سأنشر لك . لكن غص أكثر.: أكثر.. أكثر.. أكثر»..

الله يرحمه

(١)

فتحت عينى والناس تمصمص الشفاه، تطبطب على كتفى : الله يرحمه ابوك. كان بتاع ربنا : لم افهم كيف يكون كذلك ويذهب قبل أن أتملى فى وجهه جيدا وأحفظ ملامحه الطيبة. لا اتذكر أنه حملنى وحدفنى تجاه السقف كما راح جدى يفعل بعد أن رحل كلما زارنا. كل ما أتذكره أننى عندما شددت ذيل القطة وخربشتنى أسرع وضربنى رغم رشاش الدم. فرت .. فبكيت. كان شعرها ناعماً ودافئاً. أحضر فى اليوم التالى حصانا خشبيا راح يهتز كلما علوته، شعرت معه بالغيظ، فأنمته على جانبه الأيسر، فاسترحت واستراح.

هل من المعقول أن أتذكر بكائى والباب يصطفق مغادراً المنزل، أجرى نحوها، تحملنى وتستند بكوعها على افريز البلكونة، يعتلى دراجته، يشير بيده من أسفل، وإصبعى المربوط بقطعة شاش يهتز، وبقع صبغة اليود البنية لها رائحة مازلت أقشعر منها حتى اللحظة.

جاءوا به، ومددوه على سريره. كان صدره يعلو ويهبط. أمى أسرعت لتأتى بالكمادات. قال الأسطوات : اغل بعض أوراق الجوافة. السعال أتعبه.

أمى وارت شعرها «بالإيشارب» الشاش الأبيض، وأشارت لخالتى أم فكرى، أسرعت تشعل الوابور وتضع الكنكة. مازال صوت الوابور، وسعاله الجاف والشهيق المحشرج يسكننى. وأنا أجاهد أن أصل إليه، اقدامه ممددة باردة كالثلج. يسأل عنى، تضعنى أمى بين أحضانه، وتخرج لتبكى. ظل الأسطوات جالسين، وصبغة الأحذية السوداء تلطخ أيديهم. كانوا يعرفون أنه سيفارقنا. لكنه قاوم وأخرج صوتا بصعوبة، رمش: روحوا أنتم. كتر خيركم. ما انحرمش منكم.

انزلتنى أمى، عدلت الوسادة؛ أسندت ظهره، سلموا عليه، وضع كبيرهم

شـيئـا فى يده. فـى الصـبـاح صـوتت أمى، وخـالتى أم فكرى أطلت من النافـذة منكوشـة الشـعـر، تدلت بجـسـدها ولوحت بالإيشـارب الأسـود، وعادت بالإيشارب ممزقا. حدجتها أمى بنظرة مستاءة : كفاية. اعقلى. ثم راحت تنتحب فى هدوء. عند الظهيرة خرج خروجه الأخير، ومن البلكونة التى واربوا شـيشـهـا رأيت رايات عم حمص الـخـضـراء مطرزة بالقصب اللامع. أغلق الجيران دكاكينهم قالت أمى بعد أن جفت دموعها : أبوك مات!

(٢)

صعدت بصعوبة بالغة إلى «شخشيخة» السطح، تسلقت الجدار، غرست أظفارى فى نتوءات الطوب الأحمر، سرقت بيض الدجاج، وفصوص البلح الرطب، والتصقت بسوسن وقبلتها فى خدها الأحمر المتورد. خجلت لكنها لم تقل لأمها. فقد عادت فى اليوم التالى تحمل لعبها. ورأيت أننى أكبر من هذا فـهى أقصـر منى بشـبرين، وأبوها يقف كل ظهيـرة على ناصـية الشارع ويصرخ فيها أن تنزل لتحمل البطيخة الشليان، ويوم انزلقت من يدها، بكت وأسرعت أحملها عنها وأضيق الشرخ الأحمر وهى تتبعنى مذعورة.

لم تكن أمى تـخاف علىّ، وحين تعلقت بسيـارة جارتنا العروس وطارت العـجلات لتطوى الأرض طيا، نزلت فى (شط الملح). بحثت أمى عنى فى أحواش البيوت، وفى شـارع البدرى بطوله ولما انتابها اليأس شـهقت فى فزع : الولد ضـاع.

ولما عدت ماشـيا والليل أسـود، بيدى أعواد البوص كانت فى النافذة تنتظر. هبطت درجات السلم، جرجرتنى خلفها، خلعت قبقابها الخشبى، نزلت به على قدمى. خلصنى عم محـمود القهوجى. نظر إليـهـا معـاتبا : حرام عليك. الله يرحمه لو كان عايش ماكانش بهدله كده.

زجرته أمى : ابنى واعرف أربيه.

وحين خلعت ملابسى على سلم عوامة (الجمال) وتسابقت مع ابن خالتى سمير حصلت على قرشين قيمة الرهان منه. رأت خالتى شعره المبلول، جاءت وصرخت فى وجهى : إياك تاخذه معك تانى. انت عايز تغرقه. قدك هو؟

قبلها بيومين تسلقنا منزل الفونس النصرانى وقطفنا حبات النبق فنبحت الكلاب تحتنا وفقد سمير فردة حذائه: كله كوم والعوم فى النيل كوم.

أخذتنى أمى من يدى. أدخلتنى حجرة المقابلة. بهدوء وضعت لى ثلاث أرغفة، وطبقا من عسل وطحينة. أغلقت على أبواب الحجرة. أدارت المفتاح فى ثقب الباب وسمعت الصرير، وحين أدركت أننى صرت سجينا رحت أضرب الباب بقبضتى، فتحت لى، لطمتنى : اسكت وإلا أخذت العيش. خسارة فيك.

قلت متبرما : ما أحبش العسل والطحينة. عايز فول. سكتت متحيرة. سألتها : انزل اشترى من وهيبة؟

(٣)

قال الأسطى كمال الجزمجى: الولد أفسدته القسوة. سيبيه يلعب. اقتنعت أمى بالفكرة. صنعت لى مداسا من القماش الصوف الملون الجميل، ومن (الحيلة) اشترت كرة من الجلد المنقوش. فى ساعة القيلولة أخرجتنى. قالت ناصحة: العب، وحاسب هدومك.

جمعت حولى الأولاد، وقفوا أمامى، الطويل فى الأمام والقصير فى المؤخرة قلت لحسنى ابن تاجر الدشيش: خيرنى! رد بسرعة: خيرتك. انتقيت أمهرهم لعبا بحذاء المطاط: طاهر.

تفرس فى الوجوه والأقدام: درويش . أكملنا الاختيار ونصبنا الأجوال من قوالب الطوب، وبدأنا الجرى والقفز والعراك. وحين اصطدمت الكرة بمكواة (حسن الجميل) الترزى، وزحزحتها انقلب الكوب على حافته

وانسكب الماء على فستان الزبونة. خرج يطاردنا. لمحنى ففتح (جاعورته). وصاح فى حوش بيتنا: الله يرحمه لو عايش ماكانش يرضى بالوضع ده أبدا. الجيرة لها حقوق ياناس! فتحت الباب محاذرا أن أحدث صوتا. انكمشت على كنبة السفرة، وصلنى صوته. نظرت إلىّ أمى. فهمت. أطلت من النافذة: حقك على يا أسطى حسن. ماتزعلش. أول وآخر مرة. طلبت الكرة منى، قدمتها مرتعبا. مزقتها بالسكين. قذفتها فى وجهى.. ابتسمت. ساعة الغروب كنا نكمل المباراة بكرتى الشراب الجديدة!

(٤)

ذهبت أمى لعاطف الفناجيلى المكنجى، توسلت إليه أن يعلمنى صنعة تنفعنى. المدرسة أغلقت أبوابها والصيف طويل.. قالت وهى تحبك الملاءة حول وسطها: علمه صنعة تنفعه، اضربه. الولد عندك وأنت حر فيه.

تفحصنى الأسطى عاطف. سألنى: تعرف تبشر الجلد؟ هززت رأسى يمينا ويسارا. سألنى - وأمى أخبرته أننى فى الشغل خام فلم السؤال؟ - ببرود : تعرف تثنى الفوندى؟ اشرأبت أعناق الصبيان الكبار. زفرت أنفاسا حارة: ما اتعلمتش.

أتعبنى الأسطى عاطف بمشاويره، وطلبات القهوة والشاى والتمباك. ثم شوى السمك الذى لا يأتى به إلا والشمس والعة. وأظل أصعد وأهبط سلالم بيته فى الدور الرابع بحارة النفيس.

أرى الأولاد يلعبون، اقترب منهم: فيها لا اخفيها.

أولاد الجن عرفوا أننى صرت صبيا للأسطى عاطف: حوش يا أسطى صبيك. يخرج رأسه ويطل على شارع البدرى، يلمحنى، يصرخ باسمى والماكينة تدور لا تقف. ولا ينتهى مشوار إلا ويتبعه آخر. قلت لأمى مساء الأربعاء: ماتعلمتش. ترد: أصبر ياضنايا.

أسبوع كامل لا ألعب. فى الصباح يرسلنى لأحضر طبق الفول «وفحل» بصل غليظ فى الظهيرة أذهب للنفيس وأعود بالعمود الألمونيوم فى يد، ويفحل البصل فى اليد الأخرى. فى المساء تكون العجة والبقدونس فى طبق وبصلة صغيرة فى جيب بنطلونى.

مساء الخميس، أجلس على عتبة الدكان احسب كم يعطينى أجرا فى الأسبوع. يدير مؤشر الراديو فوق رفه الخشبى، يعتدل بكرسيه. بطنه يكركب ويزوم، وسير الماكينة يسقط، يعدله بأصابعه فى العجلة السفلى، بطنه تزوم وتزوم، يميل ميلا شديداً ويصدر صوتا مكتوما. الصبيان الكبار تشاغلوا فى عملهم. موسيقى المسلسل لم تستطع إخفاء الصوت المتكرر.

حاولت أن أكتم الضحك. حاولت بكل ما وسعنى ولك من جهد. ثم فجأة انفجرت فى ضحكة مصهللة. حدجنى بنظرة غاضبة : بتضحك على أيه يا ولد؟

هززت رأسى : مفيش. تعلق الصمت فى الدكان. مد يده بهدوء وأخرج شلنا فضيا دسه فى يدى : ماتورنيش وشك تانى. الله يرحمه ماعلمكش الأدب!



بقعة للضوء
مساحة للظلال

مدت يدها، سوت القرنفلات فى الظلام دون أن ترى وهج ألوانها، سمعت صهيل الأفراس فى الخارج تعدو متباعدة، تجر العربات بعجلها الخشبى الضخم المستدير، والإطار الحديدى المحكم يحتك بالأسفلت، الشرطى يسعل، يتسكع فى نهاية الشارع، ويحكم المعطف الأصفر الصوفى على جسده المرتجف. تحسست الحائط الخشن، ولامست يدها بغتة صورة الزفاف، تحسست نعومة الزجاج البارد. تعرف أنه يبتسم لعدسة التصوير، تتذكر يده تضغط على معصمها، وباقة الورد البلاستيك، تفاصيل الصورة، خلفية المنظر حيث حقول الحنطة صفراء بلون الذهب مترامية، وسماء مصقولة بالأزرق، وطائر وحيد فى الركن الأيسر، ثم شجرة الصنوبر، على أفرعها نتف الثلج، وفلاح ينحنى على غدير، وكلب لا تبدو فصيلته، فى عينيه فزع. الظلمة لها رائحة نفاذة، قرصها الجوع. صوت خفيض يأتى من الخارج لحوحاً مندغماً فى الصمت يأتى : هس .. هس .. س .. س

صوت ريح يتجول فى الخارج، يصفع أعمدة الإنارة المطفأة خارج النافذة، أحسست بالفزع لأول مرة، أحكمت الغطاء، البرد يكاد يخترق العظام، وغطاء سميك من شعر خروف أتاها صوته المرتعش : أمى .. أين أنت؟ .. أمى ..

كان يتقلب فى فراشه، تشعر أنه انكشف وبات عاريا، مدت يدها تبحث عن وجهه، الأنف الدقيق اصطدمت يدها به، فمه يغمغم. الشعر الأجعد الذى لا ترى سواده، صاح فى نفاذ صبر : أشرب.

قامت تتحسس الأشياء، باب الغرفة، أدارت المقبض، منضدة الطعام، استندت بيدها على مسند المقعد دون أن تراه، دلفت إلى المطبخ، رخامة

الأطباق، مدت يدها، تناولت كوبا، فتحت الصنبور، انتظرت، لم تنزل قطرة واحدة أتاها صوته الملح: أشرب. مدت يدها فى سلة الخبز تبحث عن برتقالة. وجدتها. لكن أين يمكن أن تعثر على سكين فكرت، سيارة مسرعة تعبر أسفل المنزل، لبرهة أضاءت المكان، كومض برق. تكسر الضوء المنسحب على ستارة الكتان امتصته الخيوط البيضاء. جاء صوته غاضبا: أمى .. أريد كوب الماء؟

غرست أظفارها فى الجلد الأملس السميك. قالت له قبل أن يسافر : لن أحتمل الوحدة نظر إليها ساخرا : هل تظنين زوجك مأفونا. أظل قابعا فى دارى. الجميع يسافرون وأنا أتفرج عليهم! قالت يومها ويدها تخفى خيط دموع، وظل كبرياء: لماذا ترحل؟ ماذا ينقصنا؟ زفر فى توجع: الكثير سيارة، فيديو، مراوح، خلاطات، رصيد بالبنك .. دفتر شيكات. يبدو أنك أدمنت «الفول».

حاول أن يبدو مرحا، سوى شعرها بيده، قال لها فى تودد : أحلم أن أحيط عنقك بعقد ماس!

اهتز جسدها وهى تناشده البقاء ـ خلع نظارته، نفخ بفمه بعض الهواء الساخن وراح يلمع الزجاج بمنديله الورقى. بتوجس قالت : ابنك سيفتقدك.

كانت تشعر أن كل مبرراتها هشة ولا تصعد لمناورته. قال مغلقا باب الجدل: لقد أعددت جواز السفر، وقطعت تذكرة الطائرة.

●●●

انتهت من تقشير البرتقالة، عادت ثانية إلى حجرة نومها. قال الولد : هات الكوب مدت يدها بالبرتقالة : تفضل. المياه مقطوعة فى هذه الساعة المتأخرة.

ضرب رأسه فى القائم الخلفى للسرير: أريد ماء.. ماء.. على حافة البكاء مشدودة بأحزانها، حاولت أن تبدو متماسكة : بعد قليل سآتى به.

اصبر. راح الولد يبكى، والظلمة من حولهما تتكاثف؛ وصدره يزدحم بالسعال الذى تمكن من صدره الضعيف. احتضنته. كان يبدو باردا كقطعة ثلج، راحت تبحث عن يديه، تدلكهما، وتضمه إلى صدرها. تضمه وغضبها يتلاشى. خفَّ السعال. قال بصوت واهن، صوت شرخه الضعف : أنا خائف

جلست على حافة السرير، أخذته بين يدها، راحت تغنى له فى الخارج أذن ديك .. ونام خائفا، أسندت رأسه على الوسادة، مساحات الظلام تتوغل فى الليل، وشقشقات عصافير واهنة تأتى على خجل ثم تغيب.

●●●

حين امسك يدها، سحبتها فى رفق، قالت له: ليس قبل أن تزور أبى. كانت ترتدى يومها بلوزة برتقالية وتنورة من حرير أبيض، وتحيط شعرها بطوق ياسمين. قال لها إنه خرج من الحرب، ولا يمتلك قرشا واحدا. كان عبدالحليم حافظ يغنى. سمراء يا حلم الطفولة، الزهور متفتحة، والآمال فراشات ملونة تحلق حولهما. قال لها: هذه الأغنية تليق بك.

ركبا المترو، وقطع بهما المسافة من رمل الاسكندرية حتى «سيدى جابر» فى نصف ساعة، نزلا متشابكى الأيدى، رشاش الماء يصل إلى وجهيهما، الماء مالح، والموجة تلو الموجة تنكسر على المكعبات الاسمنتية العملاقة.

قال لها : أنت لى! قالت كالمنومة : أنا لك!

عندما جلس المأذون بينهما ووضع منديل القطن الأبيض بين يديهما. تذكرت كلماته، دمعت عيناها كانت الزغاريد، باقات ورد .. مساحات للضوء تمسح كل عتمة.

ما بال الظلمة لا تنتهى؟ قامت تدير مؤشر الراديو، لم يرتفع صوت. تذكرت أن الكهرباء مقطوعة. والمياه مقطوعة. وأنها صارت مقطوعة من شجرة بعد أن رحل زوجها وراء سراب أحلامه. أعادت إحكام الغطاء من جديد. حاولت النوم .. حاولت لكنها ظلت تحملق فى سماء الغرفة التى

ضاعت ملامحها فى اللاشىء. ركضت حول أحلامها. أحست بنفسها تسوى ضفيرتها أمام المرآة، طفلة صغيرة شقية، تقف فى حجرة الدراسة أمام المعلمة وتنشد لأمها أغنية رقيقة. البنات تصفق لها والناظرة تقدم لها جائزة: قلم حبر ثمين.

هبت من الفراش، اتجهت إلى درجها الصغير، وراحت تنقب عنه، خطابات الزوج مكدسة، أوراق لها طعم الملح، ورائحة الغربة، مصحف صغير، ضمته إلى صدرها وقربته من رأس الطفل. وضعت القلم بين شفتيها. أعادته. حسبت أيام العمر وظلال الخريف تذكرت شجرة البينسيانا وزهورها الحمراء.

قال لها فى خطابه الأخير. إنه يخوض صراعاً ضارياً ليحتفظ بوظيفته رغم الدسائس، كتب لها : هى حرب ولابد من الانتصار. تساءلت هل هى حروب لا تنتهى؟ لم تكتب له : أن الحرب الحقيقية هنا. مع طفله وزوجته. بل كتبت له أن العمر الجميل يتسلل من بين أيديهم دون مقابل. ومزقت الرسالة.

حدثها فى التليفون، كان صوته لاهثا ومتقطعا : السيارة سأشتريها الشهر القادم. الفيديو عشرة أنظمة. الثلاجة ببابين. قال لها فى نهاية المكالمة : كيف حال ابننا؟ لم تبك هذه المرة. ردت قبل أن تنتهى المكالمة بلحظات : كبر الولد فى غيبتك وأخشى ألا يعرفك حين تعود. أرجوك أرسل صورة.

تخمش الليل بأظفارها. تنبثق أحزانها. تتقد داخلها رغبة محمومة فى أن تفتح كل النوافذ وتبحث عن قمر يمنحها الضوء المفتقد. تفتح باب شقتها وتعرض صدرها للبرد والعواصف، ويشرب جسدها مطر الشتاء لكن الولد معها، تخاف عليه، الظلمة تمددت وراحت تنهش انتظارها. تشبثت بآخر أمل لديها فوق منضدة الصالة راحت تبحث عن علبة ثقاب. عود ثقاب واحد. تشعر أن صبحها لن يطلع. وأنها وحيدة أنهكها البحث.

فى وداعة دفنت وجهها فى جسد الطفل. بكت فى نحيب متقطع. أصوات مختلطة تزحف نحوها: مواء قطط نبح كلاب، نقيق ضفادع. يتقلب فى نومه، وبشفتين جافتين : أشرب. شقت صرختها السكون: كفى.

قام الولد مفزوعا من نومه. انخرطت فى بكاء مرير. مساحة الظلال غمرت كل عمرها .. أشياء خرساء تتمدد ظلالها وتحتل كل المساحات الفضاء فى عمرها. فجأة. من ثقب صغير فوق النافذة تسلل شعاع ضوء واهن. شعاع ضوء يجاهد أن يبقى رأته يسقط فى منتصف الحجرة، ينظر إليه الولد فى دهشة. تهز رأسها فرحة. تقول بكل يقين: سيزداد نوره يا ولدى ..



كوب .. حجرة

حينما مدت يدها بالكوب أسرعت بإغلاق الباب. أدرت المقبض وتأكدت من أن أحداً لن يقتحم عليٌ الحجرة. كنت على وشك من كتابة السطر الأخير. قرأت الكلمات من جديد. شعرت بحر لافح يجتاحنى. مزقت الورقة. اعتدلت على مكتبى الخشبى العتيق. تأملت من النافذة العربات المتمهلة خوفا من مطبات الطريق، والرجال محنيو الظهور. والشمس كانت مصلوبة فى الأفق لا تبخ صهدها، بل ترسل أشعتها واهنة. تتفصد جبهتى بالعرق، تتجمع الحبيبات الدقيقة، وتسيل فى خيط رفيع يتسلل نحو عظمة الترقوة، فيلتصق القميص بالجلد.

قلت فى نفسى : هذا غريب. على حافة الشتاء نحن. فلم الشعور بالحر؟ بالأمس غسل المطر الأشجار وأحجار الطريق، وأحزانى القديمة. لم العرق؟ تجمدت يدى على كوب الشاى، رشفت بتلذذ أول رشفة وتهيأت للكتابة. طن الذباب من حولى، ضايقنى تماما، قمت وقلبى ينتفض بقوة. امسكت بلوفرى الذى خلعته منذ رجعت، رحت أهش الذباب ساخطا. رأيته نحو النافذة، يصطدم بالزجاج، ويعود يدور فى فضاء الحجرة دورات عابثة.

تعبت يدى، وأنا أتابع الحركة اللاهثة المجنونة. أخيرا صرت وحدى أحكمت إغلاق النافذة، شعرت بالسقف يبتعد. فى تلك الحالة من السهل أن أكتب. أسند ظهرى للمقعد وأتنهد ثم أنطلق لا يحد أفكارى شىء.

فى نفس اللحظة المهيبة التى أمسكت فيها قلمى، اقتحمنى. ربت على كتفى ولقد دهشت، فقد كان ضاحكا وحنونا. ضمنى إلى صدره دون كلمة، فسرت فى روحى نغمة شاردة طالما طاردتها لأقبض عليها دون جدوى خلع خوذته، وأسند بندقيته إلى حافة المكتب. تأمل أوراقى البيضاء. انحنى على أرض الحجرة والتقط الورقة الممزقة قرأها صامتا قال لى رفيق طاقم الهاون : أنسيتنى ؟ لم لا تزورنى؟.

تلاشى الضجيج، ونداءات الباعة، وصياح الأطفال، وهم يطوحون حقائبهم الملونة، ويتعاركون فى صخب. صرت والسكون وهو.

كانت ساعة الحائط تدق الواحدة ظهرا. صدى الدقات كأنها إيقاع جنائزى يلملم روحى الممزقة. عاود حديثه : لقد وعدتنى! تلفت حولى. كنت بالفعل وحيدا، مصباح الفلورنست فى الصالة المعتمة مطفأ، وعروق السقف الخشبية شامخة. وجهه المطمئن شملنى بنبل لا طاقة لى به. لم أكن خائفا. كان العرق ينهمر على جسدى فقط، وصوتى محتبس. قلت : لقد غبت طويلا. أين كنت؟ ظللتنى ابتسامته، وتهادى صوته كموج وشيشه أليف : كنت هناك .. نمت داخلى الأصداف وتمددت الأعشاب البحرية فلم أستطع التحرك قلت : حاوطنى الحزن.

كان شاربه القصير مقصوصا على غير العادة، وذقنه نامية كشوك قصير.

قال : هذا الخطاب منها.

قلت : هى لا تعرف عنوانى. كيف أرسلت ؟

هز رأسه مندهشا وصوته يخفت: طاردتنى فى الصحو والمنام، سعت إلى حيث أرقد . تقدمتها الأسماك الصغيرة. لم تخف النهر وأتت. مددت يدى ، فتلاشى فى الصمت، وتبدد وجهه الحبيب.

لم يترك سوى راحة هائلة. ونقطة دم تجمدت على ساعدى الممدود.

نضوت عنى أحزانى. نفحنى من روحه الشىء الكثير. أمسكت قلمى وحين تأهبت للكتابة. أحسست بالسقف يتراجع رويدا رويدا. والجدران تفر متباعدة. بينما صرت داخل حجرة هائلة الاتساع نقطة صغيرة تتحرك فى الفراغ، وتبحث عن ظلال الحقيقة، بينما الورقة ما زالت بيضاء، وكوب الشاى ممتلئا لمنتصفه!

انتصاف ليلة مدينة

لما أتاه الصوت المكتوم من الصندوق العتيق المترب، ينعى بوقار مصنوع هدم تلك البيوت على سكانها، دس يده أسفل حشية مهترئة، وسحب الأطلس، فر الصفحات المصقولة، فبانت الألوان الزاهية، عرف فى البنى الداكن سلاسل الجبال، وفى المساحات الخضراء المتدة السهول.. أما الأزرق بدرجاته المتفاوتة فهو البحار والمحيطات.. تمعن وفحص، قارن وعاين.. خلع نظارته ذات العدسات الغليظة، مسحها فى طرف قميصه المتسخ، بانت الخطوط السوداء المتقطعة بشكل أوضح.. لكن حاجته إلى نور الرب كانت شديدة، فاتجه إلى ضلفتى الشباك، فتحهما، تناهى إلى سمعه أنات ألم، حشرجة أدمية، أصوات استغاثة.. نظر إلى أجساد المارة المقوسة، تفحص الوجوه.. كانت النظرات مصلوبة على الأسفلت اللزج، والابتسامات ميتة.

(كان بائعو «النمس» يخبطون على الثمار الناضجة، ذات القشرة الخضراء المنقرشة، المطبوع عليها خاتم الوكالة الأسود المثلث، خبطات واهنة، تشر من عيونهم الدموع، المشترون يجرون سيقانهم المجهدة. ودون مساومة يدفعون، لم يطلب أيا منهم أن يكون الشراء «على السكين»)

يترك النافذة ، يعود ليفرد الصفحة المطوية، يقيس المسافات.. يضع خطوطا على التعرجات الصفراء والكثبان، يمر بيده على المدن والعواصم.. يبحث عن مقياس الرسم فى الزاوية اليسرى، يحول الرقم إلى كيلو مترات حقيقية.. يقلب الأرقام فى ذهنه، يشهق ارتياحا ، فيواصل الصوت المكتوم بعد مارش عسكرى بياناته المقتضبة.

يخفض الصوت الآتى فى استخذاء، ينسل إلى حجرته، يجهز فنجال قهوته.. لا يضع قطع السكر، يغنى وهو يهز كتفيه: «وأنا مالى.. وأنا مالى!» ينسى الوجوه المتجهمة، يتعالى صوته، تذكره الكلمات بأغنية أخرى لمطربة أتت من بر الشام، يتنحنح، يحاول أن يكون صوته مبحوحا :

«مـــال على توبى.. قلت يا توبى ».. ينســـاب الصـــوت على الســـلالم والدرابزين، يحرك هواء الحجرة الراكد.. ينصت لأصوات أقدام مسرعة يطرق الجيران بابه، يجذبونه من رابطة عنقه فور أن يفتح، يصفعه الرجل ذى الأنف المفلطح، على وجهه، يصفعه، والمرأة التى غمزت له بالأمس وارتدت ثوبا من «الشيفون» الأحمر، وتثنت وتقلبت على سريرها، فرآها من خلال النافذة المفتوحة، تبصق فى وجه الآن، يركله ابن جاره الذى يسكن فى الطابق الثالث، يقلبون أوراقه، يبول طفل على كومات الجرائد اليومية فتمتص الصفحات رشاش البول، تقع أعينهم على الأطلس، يحوطونه، يخرج كل منهم «مازورته» المدرجة.. يقيسون المسافات، يقسم لهم أن حسبته صحيحة، يتجادلون، يصفعونه «الكذب ليس له أرجل، الكذب يا كذاب يا قليل الدين! ».. يعيد حساباته.. يتابعون الأرقام.. يدخل ذو الكاب الكاكى مبتسما: «صحت حساباته.. لتتركوه..» يخرج آلته الحاسبة.

(كان قد اشتراها من مدينة بورسعيد الحرة.. وهربها من رجال التفتيش الجمركى بأن وضعها فى جيب سرى خاطه بسرواله الداخلى.. فلما فتشوه لم يعثروا إلا على حافظة خاوية، وقطع اللبان، وجوارب حريمى).

يضغط على الأزرار البيضاء فى الرقعة السوداء، تظهر على الشاشة الصغيرة المضيئة أرقام ذات كسور.. يهزون رؤوسهم فرحا.. فى الحى.. وفى الأحياء المجاورة.. فى مدينته.

(المدينة ذات الكباس الذى يضخ المياه العطنة بعد شفطها من مجرى النيل، وترويقها فى أحواض الترسيب، وتطهيرها بإذابة الكلور لقتل الجراثيم.. حيث يشربون ماء طهورا كان، لكنه طول السفر ونحت التربة وإلقاء الرمم. غيرّ منه الطعم والرائحة.. المدينة ذات الكباس).

وفى كل المدن الشبيهة، كانوا يتجمعون، ويتحلقون حول أحدهم، وغالبا ما يكون ممسكا بأوراق مصقولة مرتبة، يتحدث بالعربية، ويخلط عباراته

بمصطلحات علمية، يقولها مرة بالإنجليزية ومرة بالفرنسية، وفى يده قلم ثمين به ساعة رقمية.

تأتى هذه الأقلام فى الغالب من بلاد الحجاز حيث يذهب آلاف الناس فى كل عام للحج فى مواسم موقوتة، فى ثياب بيض غير مخاطة لأداء المناسك المباركة، ويعودون بحقائب مليئة بطواق مطرزة بيضاء، وأقمصة حريرية، وسبح كهرمانية، وتسجيلات وخلاطات، وسجاد منمنم غاية فى الظرف.. وتحف مما لا عين رأت.. ولا أذن سمعت)!

يسألونه الناس.. يراجع حساباته.. يعلن رقمه النهائى غالبا ما تكون كسور عشرية لا قيمة لها . حتى لو أدار صاحب النافذة المفتوحة، والعدسات الغليظة مؤشر الراديو على محطة (مونت كارلو).. وانتهى إعلان (الافريدى) ذو القط الأسود.. فان كمية القنابل التى حصرها المذيع ذى اللكنة الأجنبية وزاوية تصويبها، ما كانت لتخدش أطراف المدينة ولا الصواريخ التى صوبت إلى التجمعات البشرية.. ما كانت لتتماس مع الخطوط السوداء الصارمة.

لا خوف إذن من أن تتسرب خيوط من دم فتلوث التربة والأشجار، لأن جيولوجية الأرض، وتكوينها الرملى كفيل بأن يجعل الحبيبات الخشنة تمتص أكبر قدر ممكن من السائل الأحمر اللزج.. حتى لو تجلطت كميات منه، فان بعد المسافة غالبا ما يمنع انحداره وجريانه بشكل يوحى بوقوع كارثة تثير الرعب فى الأفئدة.

(كان يمكن لخبراء علم تكوين طبقات الأرض ان يدللوا على صحة فروضهم حول استحالة تدفق كميات الدم تجاه المنطقة محل البحث لاحتواء الأرض على كميات هائلة من خام البترول الذى يمكن تحت شروط معينة أن يتفاعل معه مكونا سائلا جديدا يفوق فى امكاناته كل عناصر الطاقة التى تم اكتشافها من قبل)!

استراح الرجل.. رغم اللطمات فى البداية.. استراحوا من بعده. والرجل

بكابه الكاكى الأنيق وإطاره الأسود الذى يرقد على حافته ذلك النسر الأصفرطاويا جناحيه فى تخاذل.. استراح.. والتجمعات المجاورة.. والتى تجاورها.. الكل حسبها.. قارنوا بأجهزة الكمبيوتر، وشرائح البلاستيك الرقمية، لكن أحدهم فى البداية شعر بضعف يخترقه - فجأة - تنسحق ألواح عظامه وكأنها وضعت فى هاون ودقت دقا شديدا.. انسحب فى هدوء، وأغلق من خلفه الباب.. تململوا.. واحسوا بالأمر ذاته.. وزيادة على ذلك شعروا بجفاف فى سقف حلقهم.. لكنهم اغتصبوا ابتسامة علقوها على أطراف شفاههم.. ثم انسحبوا.

فى المساء خرجت من بيتها.. طفلة وحيدة.. كانت تبكى فى الشارع الموحل الطويل لا يستر جسدها الهزيل إلا قميص نومها الرقيق الهفهاف.. شعرها يتطاير.. لا تعبأ هى.. حافية القدمين، تطرق الأبواب.. لا سائر فى الطريق سواها.. انسحب الخلق.. وناموا.

(فى الأرجح الرجال، برغم ما شعروا به من ان عظامهم قد سحقت وغربلت فى «منخل» كبير، قد خلعوا بدلهم الصوفية الثمينة وارد مقاطعة «يوركشير»، وعلقوها على المشاجب وارتدوا بيجاماتهم الحريرية وداعبوا زوجاتهم.. واستغرقوا فى أحلام لذيذة.. أما النسوة.. فقد تجملن، وضعن المساحيق وتعطرن.. ونزعن أكياس المنصهر).

لم تكف عن طرق الأبواب.. سارت ساعات وساعات.. شفتاها ترتجفان تدوس على الحصى، وتنتزع قدمين داميتين.. تمسح بيدها ذرات التراب المعلقة فى الفضاء، الغبار عالق بوجهها.. ينتابها الذعر عندما تصطدم الفئران بساقيها.. ساعات وساعات سارت.. فلا الأبواب فتحت ولا اليأس تسرب إلى قلبها.. اقتربت من النهر.. النهر عندما يغيب القمر يكون مخيفا.. اقتربت وخاطبته..

«يا نهر.. يا نهر.. ادعو معى الله.. أن يترفق بالمدينة».

أدار النهر وجهه.. ظنت هذا.. لان الأنهار ما عادت تنصت للبشر..

انحنت، اغترفت بالكفين الدقيقين من مائه البارد.. غسلت الوجه.. بللت شعرها.. ارتجفت.. توغل البرد فى خلاياها.. لمس النخاع.. عبرت الكوبرى المعدنى، اقتربت من مقام «الولى» واجتازته دون ان تجد وقتا لتقرأ الفاتحة.. غيبتها حقول الذرة.. فجأة سمعت صوت ارتطام جسم صلب بالأرض.. كان الانفجار فى المدينة التى تركتها منذ قليل.. تنهال القذائف من الشرق.. ظنت أنها تحلم.

فى مثل هذه الحالات كانت تقرص أذنها أو ركبتها لتتأكد هل هو الحلم أو الواقع.. إلا أن الرعب الذى اجتاحها شل تفكيرها فلم تقرص؟!

من البيوت خرج الرجال.. والنسوة من خلفهم.. شهقت عندما أبصرتهم.. كانوا من زجاج.. عيونهم من البللور، وأجسادهم تشف فترى العظام كألواح من بلاستيك ناصع البياض.. يتحركون فى كل اتجاه ببطء شديد.. صرخت.. وولولت.. عندما ترتطم القذائف بالأرض.. والدانات بالفضاء.. تتحول الأجساد المنحنية إلى مسحوق.. فى ضوء مبهر يعمى الأبصار.. ضوء خاطف أشد من البرق.. وحدهم الأطفال ظلوا دون تحول.. كانوا جامدى الوجوه.. يحلقون.. يقضم بعضهم أقلام الرصاص الممنوع امساكها بأوامر مشددة من الآباء والأمهات.

القذائف تصم الآذان.. تتهاوى الهياكل الزجاجية، وتطوح الأيدى المنسحقة حاسباتها المعدنية فتصطدم بالاسفلت الأسود محدثة أصواتا مكتومة كالصوت الذى كان يسمع بالصندوق العتيق.

كان الأطفال يعبرون النهر لم يلتفتوا إلى الوراء قط.. جرؤ أحدهم ونظر.. فى التو تحول إلى كتلة من حجارة.

(بات مؤكدا أن القذائف لم تكن تؤثر فيهم، فقد أوضح بعض العابرين ما حدث، ولم يشعر أحدهم بأى ألم نفسى أو جسدى - باستثناء حالة أو حالتين - ودائما ما يؤكد الاستثناء القاعدة).

انقطعت الانفجارات، بقت بعض الهياكل الزجاجية تترنح هنا وهناك

على الضفة الأخرى، هائمة على وجوهها.. أتى الفجر فتيا.. نفذ الضوء من خلال الأجساد المتآكلة، والتى تجاهد كى تبقى.. لحظتها انسحقت هى الأخرى.. وهبت نسمات رطبة.. كنست الذرات فى الطرقات.. سمعت الطفلة.. ومعها مجموعات الأطفال العابرين شهيق النهر.. وزفيره.. بدأ «مكروشا» ثم انتظم.

(كان قد عاد إليه تدفقه، مارد انطلق من قمقم.. صارت الأسماك فيه تقفز، والدرافيل تنحنى فى أقواسها المألوفة.. والنوارس).

فكت البنت ضفيرتها، نظرت إلى الذرات المتطايرة.. وللبيوت المهدمة.. وجلست تصلى على الراحلين، بنصف حزن، ونصف دهشة.

أما الأطفال.. بقيتهم.. فقد قالوا فى صوت واحد.. «لتكن العودة إلى المدينة».

ويكاد يكون مؤكدا أنهم بدأوا من جديد!

البنايات تسورها نباتات ذات شوك، وصبار قزمى له عصارة مرة. كاد أن يفتك بالأوراق التى أتته تحمل صورته مقاس ٤ × ٦، وتحتها الخاتم البيضـاوى، والأحبـار لم تكد تجف.. عند المدخل المغلق جلس. رغم كل المحانير. كانت للرخام سخونة مقلقة، والماء تغير طعمه فى الصنابير. ملوحة لا يطيقها. ملوحة البحر رغم غيها إلا أنها تفرحه، تصنع التضاد مع عذوبة روحه. أما تلك فقاتلة. دخل وبعد دقيقتين بالتمام خرج وبيده زجاجة مياه معدنية. سيارة أخرى تمرق تاركة خلفها سحابة الغبار التى تعصف بالأوراق.

هناك عند المنحدر القريب رأى ثمرة اللوز بلونها الأحمر الداكن ممتلئة وناضـجة. كان لطعمها مرارة لم يعهدها. سأل عن ثمرة جمين، فلم يعثر لها على أثر. لذلك فقد صمم على أن ينفذ مؤامرته الصغيرة. راح يرقب النمل. يسترق السمع لعله يفهم لغته، فترشده إلى الخروج من ورطته.

اندثر عمره، وسـقطت سنون من حساب حياته، وحين تحسس دفتر شيكاته طمأنته الخديعة، وكانت نوال تعرف أنه هناك، وترسل له أكوام الخطابات، وشرائط التسـجيل، وتبدأ رسائلها دائما بعبارة: حبيبى الغالى. فى مرة نسيت النقطة وكان فارعا كنخلة، ورأى أن هذا أفضل. غالى أم عالى؟

كانت حياته دائما رخيصة. وقد صفعها فخاصمته، وصالحها فصفعته، تقبل كل ذلك راضيا، ولم يكن بينه وبينها أولاد ليدارى ضعفه كما اعتاد الرجال المأفوفون أن يفعلوا، متعللين ببهدلة العيال. لقد أسرته بمكرها ورائحة شعرها، وذكريات الشاطئ، لقد أدرك أن السيارة التى تجاوزت الآن تقاطع شارع ٤٢ تحمل كلبا شرساً لا صوت له. لا نباح. وكان يمكنه

أن يخفى عمره نظارة شمس غالية الثمن. يمكنه أن يرقب دحرجة العمر بلا هوادة فى منحدر يتجه إلى الخلاء. أحضر قنينة ملأها بالرمال الملتهبة، وراح يحاصر بأنامله النمل، يمسكه بأصابعه الدقيقة ويلقى به من الفوهة المستديرة، ويهز ما بيديه، فيتلوى النمل من الألم. دون ذرة من رحمة أحكم إغلاق الغطاء المعدنى تاركاً الحشرات الدمثة الكتومة لمصيرها المحتوم. ولقد أدهشه أنها أرسلت تريده. وبهر أن يكون رد فعله أن يعدها بأن يمتطى حصانا ذا سرج أحمر ليطوى البوادى والقفار إلى دلتا النهر، إلى بيته ـ بيتها.

وكان يعتقد أنه سيجدها بانتظاره بنفس النظرة المفعمة بالحب، بالبغض المشتعل أزمنة طويلة ثم تحول إلى رماد. لم يجد أى نظرة. إذ كانت العتبة التى تركها طينا أو ترابا متحجراقد تحولت إلى رخام. وكانت أمام منزله سيارة بها كلب كبير مرقط الجلد، يلهث ويخرج لسانه فى حبور. لا ينبح ولا يحرك قوائمه.

كان الطير حين يفرد جناحيه لا يمكنه أن يطير. لقد أدرك مقدار الخديعة، وأمكنه أن يستدير ويولى الشمس ظهره. شتم الأشجار وداس الظلال، وتذوق مرارة الثمار. هى حنظل أو أقرب إلى ذلك. كان فى مواجهة المدخل تمثال خزفى له ملمس ناعم، بضرية من قدمه تناثر حطاماً. حين دخلت ترفل فى ثوب «الشيفون» الأسود، بكل حشمة ووقار. أنزل يده تلقائيا، فسقطت الحقائب بصوت اصطكاك مكتوم. لم تكن حشرجة كاملة، اندفعت نحوها فى جنون، وعلى وجهها لمح تجاعيد سنواته الأخيرة. دائرة زرقاء حول جفنيها المنتفخين من أثر بكاء قديم.

اتجهت نحو الأربطة تفكها. وحين انتهت من تفحص الأشياء جميعا كان على البلاط الرخامى جثة ممدة لا روح فيها مطلقاً.

بيت جدتى

كان بيت جدتى على حافة النهر مخنوقا بالطين وجدرانه بانت هذه المرة مهدمة، وقدماى تغوصان فى بركة الوحل، انتزعهما بصعوبة بالغة، أرنو للفضاء الرصاصى الجاثم على صدرى وانتزع آهة خرساء.

كان البيت على غير عادته غير مأهول بالبشر، والديكة لا تصيح قبل طلوع الفجر كعادتها، فقط فحيح متقطع لا أعرف مصدره.

والحصان البرتقالى اللون الذى نزل النهر كى يغتسل كان يصهل فى خوف، ويحدق فى المسطح الأزرق، مرتابا، وقلقا.

بدت نوارس بيضاء فى الأفق، ارتحت، ومددت يدى نحوها. هبطت على كتفى، ثم فجأة راحت تنقر مكان القلب بلا صوت. رحت أتراجع حتى صدتنى الجدران الطينية.وددت أن تحتوينى، وتدخلنى فى جوفها كى أدخل اللهب وأخرج من هيئة الصلصال إلى الخزف.

غادرتنى النوارس، والنزيف فى القلب، يدى لا تتمكن من إيقافه.

البيت هو البيت وجدتى «فهيمة» تخلع طرحتها السوداء وتهش الغربان التى تنعق، وتصطدم بالزجاج المطلى بالأزرق منذ الحرب الأخيرة.

لم يرجع خالى بوجهه الوسيم، وبيادته - التى كنت أدخل إصبعى الصغير فى فتحاتها الصغيرة كى أنتزع الرباط الأسود وأصنع به وترا مشدودا فى مدخل العشة. أحركه فى سرعة فيصدر موسيقى ترقص عليها أختى الصغيرة، وهى تحاذر أن تدوس الكتاكيت الصغيرة بزغبها الأصفر، وصوصوتها وهى تلتم حول الدجاجة الأم، اختفت إلى الأبد.

كانت بيادته تمثل لى عالما غريبا ومفزعا. فى المرة التى راح يبحث عنها كى يضع أقدامه فيها بعد انتهاء اجازته. قرصنى فى كتفى بفرح : اذهب واحضرها أيها الثعلب الخبيث!

وفى ركن قصى من سطح البيت اخفيت جذر البطاطا، وأشعلت قش الأرز ورحت أنفخ النار حتى احمرت عيناى، وجاءت أمى، جذبتنى من

شـعرى والبطاطا لم تنضـج بعـد. صـرخت فى: أتريد أن تشـعل البـيت حريقا؟

اجاء يطلب نارا أم جاء يشعل البيت نارا؟

وهزتنى : اترك هذا الكتاب الآن. انتزع صورته واخفيها فوق الكراكيب.

لكزتنى فجريت كالمهر، وأنا ادبر معها مؤامرة صغيرة لإغاظة خالى. جاء من الكتيبة وقد فقد ساقه ولم تمهله الأيام كثيرا كى يتمتع بالنياشين والأوسمة التى حصل عليها.

قبل أن يمضى يومـان على رحيله امـتدت يد جدتى وألقت بالأوسـمة جميعها فى قاع النهر.

خلعت مـلابسى بعد أن استدارت عائدة إلى البيت، غطست أبحث فى القاع، نهشت ساقى سمكة متوحشة، والنهر أسماكه لم تفعلها معى أو مع غيرى، صعدت ألهث قلت لأمى : كادت تفترسنى!

ربتت على كتفى، وهى لا ترى البلل : تخفف من حزنك وابك! لن يقلل ذلك من رجولتك.

ولقد عصف بى ذلك الحلم البعيد، حين أمسك بمدفعه وخرج من الخندق مواجها «قول» الدبابات بمفرده، القذائف تنطلق نحوه، ولا يصاب بخدش واحد، نظر نحوى أن أتبعه. فلم أجرؤ مطلقا. أشار ثانية والدبابات تحجرت من هول المفاجأة، خرجت بحذر تقدمت وحين حاذيته انفجرت دانة، حولتنى أشـلاء انحنى يلملم قطع اللحم الدافـئـة، ويضـعـهـا فى صندوق الذخيرة الخالى. صندوق الهاون الذى تركوه فى النقطة قبل تقهقرهم.

وحـين أصـبح الصندوق بين يديهـا انحنت تبكى، وتنهنه، وتغـمس أصابعها فى الدم اللزج القانى الحمرة: يا حبيبى يا ابنى!

ودمعة جدتى ساخنة. وخالى يغيب فى الرمادى ووجه النهر مربد. بدت حلوة فى ثوبها الأبيض كزهرة فل: مرفت. أين أنت!

وكان هيثم بوجهه الملائكى يداعبنى، ويتحسس ذقنى النابتة بشعر قد غزاه الشيب. وضعت رأسى على وسادته. وجاءت بأعواد «التمر حنة» ووضعتها فى نفس المكان. وغمرنى سكون هائل وهى تطيب روحى بأنينها الحنون النبيل.

ولما تأكدت أنه البيت ذاته، وأن الأركان قد تداعت، والسقف قد تهدم، لفت نظرى بريق مطموس، تخفيه الجدران المتآكلة، مددت يدى وانتزعت الجواهر الأربعة، وخلصتها من الوحل فبدت متألقة، انتشت روحى، وقلت فى نفسى. لابد أن أبتنى بيتاً جديداً. ولما تهيأت للعودة هجموا على، بأظفارهم ومخالبهم وحاولوا سلب ما معى، صحت: تلك جواهر العائلة. وكان هيثم يتخبط فى أقدامى، يلهو بلعبة دب هائلة تخفى وجهه. أبعدت اللعبة وحملته. هجموا بضراوة أكثر، وفى ومضة اختيار مفاجئة، قررت أن ألقى بالجواهر وأفلت بالولد.

تحطمت جواهرى حين ألقيت بها، وتخاذلوا فى مواجهتى بعد أن أنشبت أسنانى فى كتف أكبرهم.

كانوا يتراجعون فى ذل وانكسار. كنت أحتضن الصغير وهى تتبعنى برائحة التمر حنة وتسير فى ظلى، ولقد رأيتها تنحنى لتجمع ما تبقى من الجواهر المحطمة. سألتها: لم؟

ردت: سنجعلها ذكرى للأيام القادمة.

أما هيثم الصغير فقد راح فى إغفاءة قصيرة، تأملت ملامحه وتفرست فى تفاصيله لأول مرة، كان يشبه خالى، قبل أن يحصل على أوسمته، خالى الذى أخفيت بيادته، وغاب بها دون أن يحكى لجدتى نبوءته عن أوغاد أرادوا أن يسلبوا البيت. ذلك البيت الذى صار مخنوقاً بالطين!

صدر للمؤلف

* الشعر

- الخيول، مديرية الثقافة بدمياط، سبتمبر ١٩٨٢.
- ندهة من ريحة زمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١.
- ريحة الحنة، مديرية الثقافة بدمياط. ١٩٩٨.
- نتهجى الوطن فى النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل ٢٠٠٠.
- سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافى، مايو ٢٠٠٠.

* الرواية

- رجال وشظيا، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٠.
- ظل الحجرة، مركز الحضارة العربية، أغسطس ٢٠٠١.

* القصة القصيرة

- خوذة ونورس وحيد، دار سما، ابريل ٢٠٠١.
- كيف يحاربُ الجندى بلا خوذة؟ المجلس الأعلى للثقافة، سبتمبر ٢٠٠١
- أرجوحة، مركز الحضارة العربية، نوفمبر ٢٠٠١.

* دراسات ومرجعات

- الحكيم وحماره، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩.

* حوارات صحفية

- مواجهات، مديرية الثقافة بدمياط، مارس ٢٠٠٠.
- تقاطعات ثقافية، مديرية الثقافة بدمياط، مايو ٢٠٠١.

المحتويات

صفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٢/١٥٦٠٤

مطابع الأهرام بكورنيش النيل